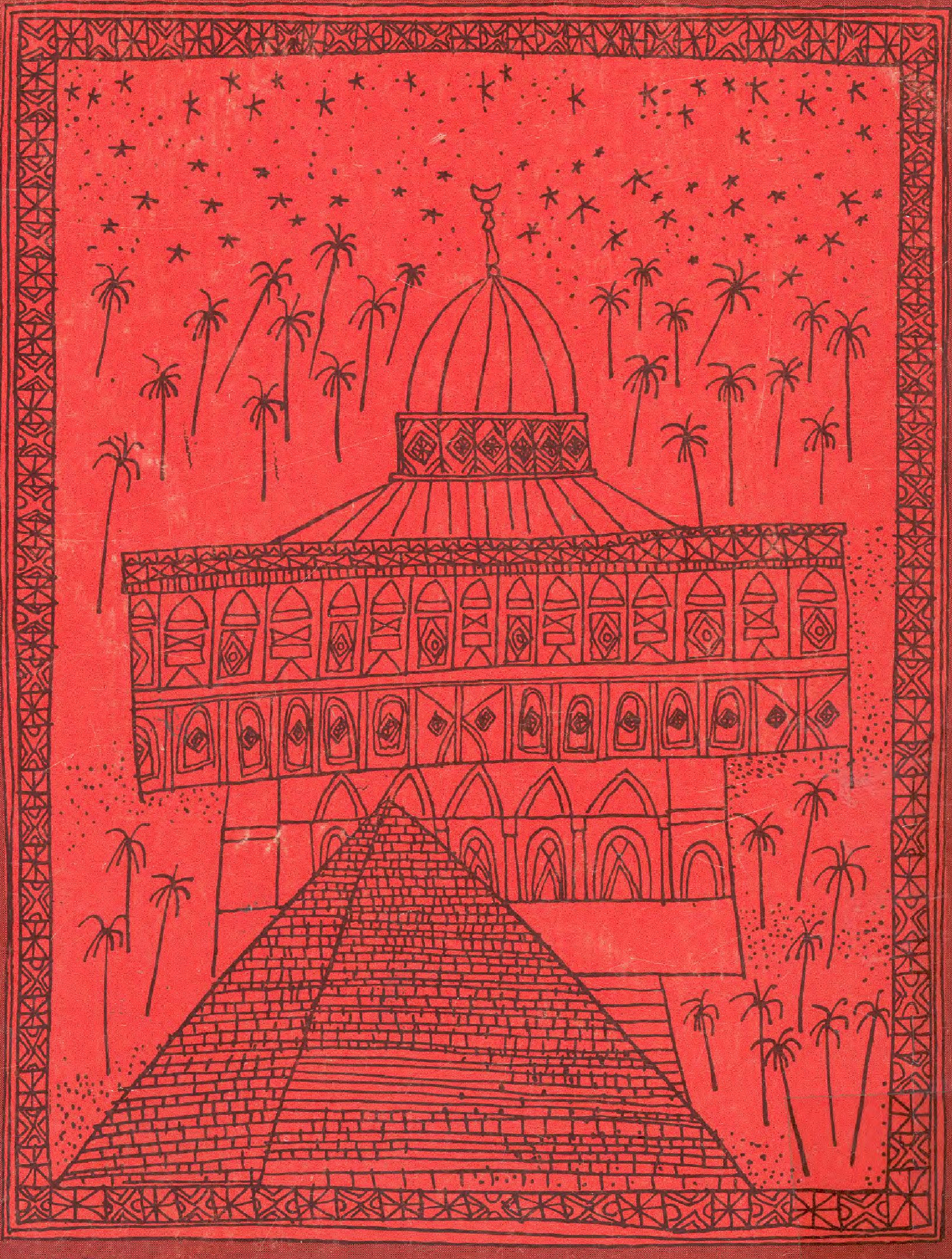
بوابة مصر الشرقية
مصر وفلسطين عبر التاريخ



عبد العال الباقوري

مؤسسة نشر
الثقافة العربية

مؤسسة نشر
الثقافة العربية

عبد العال الباقوري

بوابة مصر الشرقية
مصر وفلسطين عبر التاريخ



الفصل الاول

العصـــور القديمـــة

١ ـــ خان فلسطيني في القاهرة

المكان : حي الجماليه في مدينة القاهرة .
الزمان : اواخر سنة ١٩٧٤
ورجل وابنه يدخلان احد شوارع الحي .

هذه اول مرة يزور فيها أحمد القاهره . جاء به أبوه من قريتهم في ريف مصر ، مكافأة له على نجـــاحه بتفوق في امتحاناته .

على جانبي الشارع الذي دخله احمد ووالده ، تمتد دكاكين عامره بالحلي والمجوهرات ، وبقطع الآثار ، بعضها أصلي وبعضها تقليد .

بدا أحمد مأخوذا بهذا العالم الجـديد عليه ، فالشارع الضيق مزدحم بالناس ، مصريين وغير مصريين . اقتـــرب الاب والابن من نهايه الشارع . لمح احمد « يافطة » كتب عليها « خان الخليلي » .

سأل الابن والده عن معنى العبارة . قال الاب : كلمة « خان » تعني « اللوكاندة » او الفندق . والخليلي تعنـــي رجلا من بلدة « الخليل » الفلسطينية . وقد أقام الرجل في هذا المكان ، وبنى خانا . وفي ذلك العصر ، كـــان يحضر المسافر ودابته ، ينزل في الخان ، ويبيت فيه ، ودابته تبيت في قسم آخر من الخان ، حيث يلقى كل منهما العناية والرعاية اللائقة به .

مبيت المسافر ودابته في الخان ، اضحك احمد . ولكن المعلومات الجديدة اثارت تساؤلاته :

فلسطيني يقيم فندقا في مصر ؟! كيف كان ذلك ؟

لمح الوالد علامات الدهشة والاهتمام على وجه ابنه . فأضاف يقول : لقد بنى هذا الخان قبل مئات السنين . وتوفي الخليلي . وتهدم خانه وزال ، وبقي الشـــارع يحمل نفس الاسم ، تخليدا لذكرى اهم بناء في هذا المكان في فترة مـــن الزمان ، ودليلا مع مئات وآلاف الادلة على تلك العلاقـــة المستمرة بين مصر وفلسطين ، المكان والناس ، وتاريخ المكان والناس .

تساءل الابن : معنى ذلك ، انه منذ مئات السنين ، عاش في مصر ناس جاءوا من فلسطين .

أجاب الوالد : بل منذ آلاف السنين يا أحمد ، منذ الفراعنة والتاريخ القديم .. وحتى اليوم ، لا تزال العلاقات مستمرة ، .. ومتجددة .

قال احمد وفي صوته نبرة الدهشة والعجب : لكني قرات في احدى الصحف الصادرة صباح اليوم في القاهرة ، ان فلسطين أصابتنا بالخراب ، وجرتنا الى الحـــروب ، التي اضعفتنا ، وقتلت ابناءنا ، وخربت اقتصادنا .

بدا الغضب على وجه الاب وهو يقول لابنه في لهجـــة حادة : هذا كلام باطل وغير صحيح .

قطع الرجل وعدا لابنه بأن يروي حقيقة العلاقة بين مصر وفلسطين عبر التاريخ .

اوفى الوالد لابنه بوعده . وقص عليه فصولا متتابعة من تاريخ مصر وفلسطين .

٢ — في الفنـــــدق

في الطريق من « خـــان الخليلي » الى الفندق الذي يقيم فيه أحمد ووالده ، دخل الوالد احدى المكتبات واشترى منها خريطة كبيرة للوطن العربي .

وفي حجرتهما بالفندق ، نشر الوالد الخريطة فوق مائدة ودعا ابنه الى أن ينظر معه الى موقع مصر وفلسطين .

قال الوالد لابنه : ان فلسطين فوق الخريطة وفوق الارض ليست أكثر من امتداد شمالي شرقي لارض مصر ، بحيث تأخذ فلسطين موقع « البوابة » لمصر ، من هذه الناحية .

واضاف الوالد ، وهو ينقل القلم من جزء لاخر في الخريطة : هذا الجزء من سيناء المصرية يسمى « هضبة التيه » التي تشمل امتداداً ارضيا لسلسلة من الهضاب الموجودة في هذه المنطقة (واشار اليها الوالد بقلمه) التي نسميها حاليا « الضفة الغربية المحتلة » .

وحرك الوالد قلمه فوق الخريطة نحو الشمال وهو يقول : اما سهل سيناء الشمالي ، فهو امتداد أيضا لارض فلسطينية يسميها الجغرافيون سهل صارونة وغزة .

ونظر الوالد الى ابنه وهو يقول : هذه العلاقة بين سيناء المصرية وبين فلسطين جعلت قدماء العرب يطلقون اسم « شبه الجزيرة العربية » على المنطقة التي تشمل سورية ولبنان وشرق الاردن وفلسطين وشبه جزيرة سيناء ، بل وعلى ذلك الجزء من مصر الذي يقع شرق النيل . وقد اعتبروا النيل حدا فاصلا بين جزيرة العرب من الشرق ، وغيرها من الاراضي التي تقع غرب النيل .

وروى الوالد لابنه ان سيناء شهدت في العصور القديمة قيام ممالك عربية ، من اشهرها مملكة الأنباط . وقد امتدت هذه المملكة من خليج العقبة الى البحر الميت ، وضمت حدودها شمال الحجاز ، الى جانب سيناء المصرية .

٣ ــ وجهاء الهكسوس

وعندما هم الوالد بالجلوس الى كرسيه ، كان يقول لابنه : واضح امامك من الخريطة ان فلسطين تجاور المملكة الاردنية ، وسورية ولبنان ، ومصر . ومع ذلك فان فلسطين ارتبط تاريخها بتاريخ مصر ، اكثر من ارتباطه بتاريخ اي قطر آخر من الاقطار التي تجاورها ، سواء كان ذلك في العصور القديمة ، او الوسطى ، او العصر الحديث .

• • •

قال الوالد لابنه :

لا أريد ان اثقل عليك هذا المساء بمعلومات كثيرة عن التاريخ القديم . وانت تعرف ان الفراعنة ، أي ملوك مصر القديمة ، مدوا سلطانهم الى أجزاء واسعة من سورية وفلسطين ، منذ بداية التاريخ المكتوب والمعروف لنا ، والذي يرجع الى حوالي ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد .

وحينما جاء « الهكسوس » الذين سماهم قدماء المصريين بـ « الملوك الرعاة » ، وقد فرضوا حكمهم بالقوة على منطقة واسعة ضمت مصر وفلسطين ، وأقاموا في فترة قصيرة امبراطورية امتدت من النيل الى الفرات . واستمر هذا الحكم حوالي ١٥٠ سنة ، من ١٧٣٠ الى ١٥٨٠ قبل الميلاد .

كان الهكسوس خليطا من قبائل آسيوية ، وقوقازية ، غزت مصر عن طريق فلسطين ، وسيناء . وبعد ذلك تراجعت غزواتهم في عكس الاتجاه الذي جاءوا منه . والجماعات التي بقيت منهم اختلطت وذابت في سكان البلاد التي عاشوا فيها .

وقد انتهى حكم الهكسوس لمصر سنة ١٥٨٠ قبل الميلاد تقريبا . وفي ذلك العام ، عاد الحكم المصري الى فلسطين فقد طارد الفراعنة الهكسوس في فلسطين وفي سورية ، وقضت مصر على كيان الهكسوس في بلاد الشام ، في موقعة مشهورة وقعت في « مجدو » ، وأثبتت منذ ذلك التاريخ المبكر ان مصر تدافع عن نفسها في فلسطين . وهي حقيقة تأكدت في مراحل التاريخ التالية .

٤ ـ آثار مصرية في فلسطين

قال الوالد لابنه :

في موقعة « مجدو » قضى المصريون على نفوذ الهكسوس ، ثم أقاموا امبراطورية ضمت سورية وفلسطين ، اللتين أصبحتا سور حماية لمصر من ناحية الشرق . وتزايدت العلاقات بين مصر وفلسطين منذ ذلك الوقت ، وأصبح خط حدود مصر يقع عند مدينة « زاهي » في شمال فلسطين .

وعثر رجال الاثار في فلسطين على اكثر من ٥٠٠ قطعة اثرية مصرية ، ترجع الى ذلك العهد ، الذي يعرف باسم « عهد الامبراطورية » وامتد من ١٤٦٥ الى ١١٦٥ قبل الميلاد .

ومن بين هذه الاثار عثر على تمثال لرمسيس الثالث في مدينة بيسان ، واخر له ايضا في مدينة « مجدو » .

وبنى رمسيس الثالث في فلسطين معبدا للاله آمون .

ومن أهم الاثار المصرية التي تتعلق بصلة مصر بفلسطين لوحة تسمى « لوحة بني حسن » يرجع تاريخها الى عام ١٨٢٩ قبل الميلاد تقريبا . وتم العثور عليها في قرية بني حسن ، في صعيد مصر .

تمثل لوحة بني حسن رحلة احدى قبائل فلسطين الى مصر . ويقود القبيلة شيخها الذي يحمل اسم « أبيشاي » ، وتتكون القبيلة من ٣٦ شخصا ، من الاطفال والنساء والرجال ، جاءوا يحملون هدايا من انتاج فلسطين الى حاكم مصر .

لقد كان حكام مصر يعرفون اهمية فلسطين بالنسبة لبلادهم ، قبل ان يأتي غزو الهكسوس . ولكن هذا الغزو زاد وعي المصريين بأهمية فلسطين كمفتاح لمصر ، في الدفاع عنها وحمايتها ضد الطامعين فيها ، ووجد المصريون ان سيناء هي الممر الذي يصل ما بين فلسطين ووادي النيل .

ومنذ ذلك التاريخ القديم ، قام تفكير المصريين على خطة حربية ثابتة ، هي نقل الحرب في الدفاع عن مصر الى ما وراء سيناء ، حيث لا تضطر مصر الى انتظار الغزو داخل بيتها ، في الوادي .

وفي كل الحروب التي خاضتها مصر ، فان المقاتلين المصريين لم يتجاوزوا حدود بلادهم المعروفة الا لتأمين مصر نفسها ، ضد خطر خارجي .

وكل حروب مصر الدفاعية او الهجومية في الشرق ، جرت بشكل خاص فوق ارض فلسطين . وقد كانت خطة مصر العسكرية منذ القدم خطة دفاعية ، غير هجومية . ولكن غزو الهكسوس ، جعل مصر تؤمن بمبدأ ان الهجوم في فلسطين هو خير وسيلة للدفاع عن مصر .

وكان ذلك نتيجة التلاصق في الارض بين مصر وفلسطين ، فالترابط الجغرافي بين البلدين جعل فلسطين عبارة عن « دهليز » اي ممر ومدخل لمصر من ناحيتها الشرقية ، وبالمثل

فان مصر هي دهليز البلاد السورية عامة ، وفلسطين خاصة كما انها — أي مصر — قلعة الحماية لهذه المنطقة كلها .
والعدو الذي يستطيع اسقاط مصر ، يسهل عليه اسقاط سورية وفلسطين في يده . ومن يطمع في احد البلدين ، لا بد ان تمتد اطماعه الى البلد الاخر .
وهذه الحقيقة نعيشها ونحياها اليوم — يا بني — فيما نراه ونلمسه من اطماع العدو الصهيوني .

٥ — تاريخ واحد

قال الوالد لابنه :
اذا استعرضت ، يا بني ، أحداث تاريخ هذه المنطقة من العالم ، ستجد صعوبة كبيرة في الفصل بين تاريخ مصر ، وتاريخ فلسطين .
لقد جمعت بين البلدين منذ القديم « وحدة التاريخ » هذه الوحدة لا تعني التشابه الكامل بين البلدين ، في كل المراحل ، وفي جميع الاحداث . لا تعني مثلا ان كل حاكم حكم فلسطين قد حكم مصر ، لكن هذه الوحدة تعني التشابه والتقارب في « أهم الاحداث التاريخية » التي مرت بالبلدين . ونتيجة لذلك ، فان فلسطين ومصر معا هما اكثر الاقطار العربية التي جمع بينها « تاريخ مشترك » ، في الماضي البعيد ، والقريب ، وفي الحاضر .
وفي أغلب فترات التاريخ الهامة ، والحاسمة ، جمعت بين مصر وفلسطين دولة واحدة وكيان واحد .
وترتبت على ذلك حقيقة معروفة ، وهي أن من يحكم مصر ، يحكم فلسطين غالبا . ومن يحكم فلسطين يحكم مصر غالبا . ولم يختلف الحكم في البلدين الا بسبب غزو أجنبي ، أو بسبب ضعف الدولة في مصر .
وعندما قامت في القرن التاسع قبل الميلاد دولة تسمى « الدولة الاشورية » زحفت من بلاد ما بين النهرين (العراق حاليا) نحو البحر الابيض المتوسط ، والحقت مصر وفلسطين وسوريا بأملاكها .

ومر الزمن . وضعفت دولة الاشوريين . وجاء الفرس ، وهزموا الاشوريين واستولوا على عاصمتهم (نينوى) سنة ٦٠٦ قبل الميلاد ، ساد الفرس في هذه المنطقة ، واخضعوا مصر وفلسطين وسوريا لسيطرتهم ، طوال الفترة من القرن السادس الى نهاية القرن الرابع ، قبل الميلاد .

وبعد ذلك ، خضعت مصر وفلسطين معا لحكم الاسكندر المقدوني . كما خضعتا معا — بعد ذلك لحكم الرومان الذين استمرت دولتهم تحكم هذه المنطقة من العالم حوالي خمسة قرون .

وخلال سنوات حكم الرومان ، ظهر السيد المسيح . واضطهدت روما اتباعه ، فناضلوا دفاعا عن دينهم ، وفي عام ٣٢٤ بعد الميلاد اعترفت روما بالدين المسيحي رسميا .

وحدث صراع وقتال بين دولتي الروم والفرس . وضم كسرى حاكم الفرس كلا من مصر وفلسطين وسوريا الى مملكته . ولكن هرقل امبراطور الرومان ، هزم الفرس عام ٦٢٧ . واسترد الحكم لدولته في مصر وفلسطين وسوريا ، وفي الاقاليم التي فقدتها الدولة الرومانية ، من قبل .

وفي عام ٦٢٨ ، تلقى كسرى فارس ، وهرقل الروم رسالتين من النبي محمد صلى الله عليه وسلم يدعوهما فيهما الى الاسلام .

وفي منتصف القرن السابع ، استطاع العرب فتح سوريا وفلسطين ومصر ، وطردوا الرومان من هذه البلاد .


وفي اقل من قرن طبع العرب اهل سوريا وفلسطين ومصر بدينهم — الاسلام — ولغتهم وتقاليدهم .

هذا هو التاريخ الواحد ، حلقات متواصلة ومتتابعة ، استمرت خلالها علاقات الترابط والالتحام بين مصر ، وفلسطين .

٦ — امن مصر في فلسطين

قال الوالد لابنه :

في ظل الاسلام ، زاد الترابط ونمت العلاقات وازداد التواصل بين فلسطين ومصر . كان نجاح العرب في فتح



ابراهيم باشا

فلسطين ، مقدمة لنجاحهم في فتح مصر . وتم الفتح على يد قائد واحد هو عمرو بن العاص وفي زمن خليفة واحد ، هو عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين .

وخلال ذلك ، بقيت حقائق الجغرافية تربط مصر الى فلسطين باوثق رباط وامتنه .

وبقيت هذه الحقائق تؤكد وجود علاقة متبادلة بين امن مصر ، وامن فلسطين .

فقد كانت فلسطين منذ الفتح الاسلامي ساحة المعارك الحاسمة في هذه المنطقة من العالم سواء كانت معركة حطين في عهد صلاح الدين ، او معركة مرج دابق ، او حصار نابليون لمدينة عكا الفلسطينية ، وغيرها .

وفي العصر الحديث ، لم تختلف الصورة ، ولم تتغير معالمها . ان خطط القتال والحرب التي نفذها ابراهيم باشا وهو يتجه نحو فلسطين ، لم تختلف كثيرا عن خطط القتال والحرب التي نفذها تحتمس الثالث ، الذي جاء قبله بأكثر من ٣٠٠٠ عام .

وخلاصة تاريخ مصر العسكري تتركز في ان مصر تتجه دائما نحو الشرق ، نحو فلسطين ، فالدفاع عن مصر لا يكون الا في فلسطين ، في منطقة تقع بين غزة وبير سبع . ومن يضع يده على هذه المنطقة « الصغيرة » يسهل عليه ان يوجه حرابه او مدافعه نحو قلب مصر .

وفي العصر الحديث ، تزايدت خطورة فلسطين بالنسبة لمصر . صارت فلسطين هي الجسر المباشر من الشام الى مصر . واصبحت فلسطين — مع قناة السويس — هي عنق الزجاجة فيما بين البحرين الابيض والاحمر . واصبح هدف الاستعمار هو دفع مصر بعيدا عن فلسطين ، حتى تبقى مصر كيانا ضعيفا ، وهزيلا من الناحية العسكرية .

الفصل الثاني

تحت ظل الحكم الاسلامي

١ — قبائل فلسطينية في مصر ومصرية في فلسطين

قال الوالد لابنـــه :

سيناء هي حلقة الوصل بين مصـر وفلسطين ، وجسر العبور بينهما ، وهي النقطة التي تتداخل وتتشابك فيها كل عناصر الترابط بين البلدين ، ويسميها البعض « فلسطين المصرية » .

وبعد الفتح الاسلامي لفلسطين ومصر ، تزايدت أهميـة سيناء كممر من الحجاز والشام وفلسطين الى مصر . ونشأ قدر كبير من التداخل والتشابك بين قبائل البدو في سيناء وفي جنوب فلسطين ، بشكل خاص . واصبحت هذه القبائل تنتقل بين البلدين ، بلا حواجز ولا سدود .

كانت القبيلة الواحدة تعيش فترة في سيناء او في شرق الدلتا ، ثم تزحف نحو فلسطين ، وتعود في مرحلة تاليـة الى مصر .

وكان العام الواحد يشهد رحلة التنقل للقبيلة الواحدة بين الاجزاء المختلفة لهذه المنطقة ، التي تجمع بين شمال شرق مصر ، وجنوب فلسطين . وكان فرع من القبيلة الواحـدة يعيش في أحد البلدين ، بينما يعيش فروع اخرى من نفس القبيلة في البلد الاخر .

وصارت غزة الفلسطينية ، والعريش المصرية كأنهما كيان واحد ، مترابط الاجزاء من حيث السكان ، وعلاقات العمل

والتجارة ، وانتقلت بعض قبائل هذه المنطقــة ، في بعض المراحل لتعيش داخل مصر ، او داخل فلسطين ، ولتنسج ثوبا جديدا من العلاقات بين سكان البلدين .

٢ — درس من الطولونيين

قال الوالد لابنــه :

طوال حكم الخلفاء الراشدين ودولتي الامويين والعباسيين ظلت فلسطين ومصر « ولايتين » خاضعتين لــلادارة او الحكومة المركزية ، سواء كان مقرها في المدينة ، او دمشق ، او بغــداد .

وحينما بدأت مصر تحاول الخروج على الخضوع للحكومة المركزية ، والانفصال عنها ، سارعت الى اخذ « فلسطين » معها ، لتؤكد استقلالها ، وتضمنه ، اذ لا استقلال لمصر بدون فلسطين .

وهذا هو الدرس المستفاد من حكم احمد بن طولون لمصر .

حكم ابن طولون مصر ١٥ سنة فقط ، وتــلاه اربعة من الابناء والاحفاد ، واستمر عمر الدولة الطولونية ٣٧ سنة فقط . وهي فتره قصيرة جدا في تاريخ مصر . ولكن هــذه الفتره القصيره يعتبرها المؤرخون نقطه تحول في تاريخ مصر التي أصبحت « مستقلة » او شبه مستقلة عن دولة الخلافــة العباسية .

وما يعنينا هنــا ، ان « استقلال » مصر الــذي بداه الطولونيون ، واستمر فيما تلا ذلك ، ارتبط بكون فلسطين غالبا جزءا من هذه الدولة المستقلة ، او شبه المستقلة . وظل الامر هكذا ، حتى دخل السلطان سليــم الاول العثماني القاهرة عام ١٥١٧ .

لقد ادرك ابن طولون ، وهو عسكري تركي الاصــل ، ضرورة فلسطين في الدفاع عن مصر . فمد حكمه الى فلسطين والشام ، ودعم وجوده في فلسطين ، ببناء قاعده بحرية في عكا ، ووضع حاميات قويه في المراكز الحساسة من فلسطين ، واهتم بتطوير الزراعة ، وتحسين الري فيها ، كما فعل في

مصر .

ورغم ذلك ، فان الاراضي التي حكمها الطولونيون لم تكن لهم فيها قاعدة وطنية . وكانوا هم انفسهم اجانب في هذه البلاد ، في مصر وفلسطين ، لذلك كان عمر دولتهم قصيرا ، فلم تعش اكثر من ٣٧ سنة .

٣ ـ دولة الفاطميين

قال الوالد لابنه :

زال حكم الطولونيين سريعا ، وانتهى عام ٩٣٥ من مصر والشام ، بما في ذلك فلسطين .

وجاءت الدولة الاخشيدية ، وكانت قصيرة العمر ايضا ، وزال حكمها وانتهى في عام ٩٦٩ ، على يد الفاطميين .

لقد غزا الفاطميون مصر من الغرب وليس من الشرق ، وهذه احدى الغزوات النادرة في تاريخ مصر ، الذي عهد مجيء الغزاة من الشرق .

وبعد اربع سنوات من فتح الفاطميين لمصر ، أقاموا مدينة القاهرة لتكون عاصمة لدولتهم ، كما بنوا الجامع الازهر ليكون مدرسه علمية لمذهبهم وهو المذهب الشيعي .

نجح الفاطميون بعد الاستيلاء على مصر ، في اقامة امبراطوريه واسعه الاطراف ، وقد امتدت دولتهم من المحيط الاطلسي الى المحيط الهندي . وواصلت سياسة ضم فلسطين الى مصر .

وعندما ضعفت دولة الفاطميين في مصر ، انتزعت منهم بعض اجزائها ، فخرجت الشام من تحت حكمهم . واصبح الوطن العربي ساحة للخلافات والمنافسات بين الاسر الحاكمه والمتحكمة في بعض اجزائه .

وطوال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ، ساد الانحلال السياسي والتخلف الحضاري كثيرا من أجزاء الوطن العربي وكثرت الثورات المحلية في هذا الجزء او ذاك . وتزايدت الخلافات والصراعات ، وتعددت « الدويلات » المتنافسة والمتحاربة فيما بينها .

وفي هذه الظروف من الخلافات والصراعات التي سادت الوطن العربي ، جاءت « الحروب الصليبية » ، بهدف احتلال «قلب الوطن العربي» فيفلسطين، ولتتخذ منها نقطة ارتكاز ، للتوسع في اجزاء اخرى من الوطن العربـــي ، في مصر من ناحية ، وفي الشام من ناحية أخرى .

والحروب الصليبية من أول سطر الى آخر سطر فـــي تاريخها تقدم ((صوره مجسمه)) لعلاقة مصر بفلسطين .

وهي من ناحية اخرى ، نموذج تاريخي كامـــل للغزوة التي نواجهها اليوم تحت اسم ((الغزو الصهيوني)) واقامـــة اسرائيل في قلب الوطن العربي ، ومحاولة الامتداد من هذا القلب الى اجزاء اخرى من الوطن العربي ، الى سوريا ، ولبنان ، والاردن .

الفصل الثالث

قلعة الدفاع ضد الصليبيين

١ ـ يحتلون فلسطين وهدفهم مصر

قال الوالد لابنــه :

قبل حوالي تسعة قرون بدأت الحملات الاستعماريـة الاوروبية التي حملت اسم الصليب ، والصليب منها بريء .

استمرت هذه الحملات حوالي قرنين ، فقد بدأت في عام ١٠٩٥ ولم تهزم بشكل نهائي الا في عام ١٢٩١ .

كانت فلسطين هي الهدف الاول والمعلن لهذه الحملات . ولكنها ـ في الواقع ـ ومنذ بدايتها وحتى نهايتها استهدفت مصر ، كما استهدفت فلسطين .

وكانت هذه الحملات حربا معلنة وسافرة ضد أي محاولة لتوحيد أجزاء الوطن العربي .

حاولت عن طريق السيطرة على « عرش شرق الاردن » ووادي عربة ، اقامة سد يمنع الاتصال بين مصر وما شرقيها من ارض عربية .

وعمل الصليبيون جاهدين على محاربة اي محاولة لتوحيد اجزاء الشام ، بعضها ببعض ، وعملوا جاهدين في نفس الوقت محاربة محاولات الوحدة بين مصر والشام .

وفهم الصليبيون ان بقاءهم واستمرارهم في احتلال الارض العربية ، مشروطة بتفرقة العرب ، كما ان زوالهم من هذه البلاد مرتبط بوحدة العرب .

لذلك ، سعوا ما استطاعوا لبث الفرقة العربية ، ولمقاومة

كل محاولات الوحدة بين العرب . فقد عرفوا ان استقرارهم في اي جزء من الارض العربية مرهون بالسيطرة على الاجزاء العربيه الاخرى ولذلك ، سرعان ما مدوا انظارهم فيما وراء فلسطين ، وفيما يجاورها من الشمال والجنوب .

ولم يكن احتلال فلسطين – بالنسبة للحملات التي حملت اسم الصليب زورا وبهتانا – سوى موضع القدم او نقطة الهجوم للانتشار في مصر والشام .

واصبحت مصر مهددة بخطر الغزو الصليبي ، منذ نجح الصليبيون في اقامة مملكة لهم في جزء من فلسطين . اذ كانت مصر هي هدفهم الحقيقي ، بصفة خاصة ، وهدفهم بصفة عامة هو ، احتلال الشواطيء العربية . على طول الساحل الشرقي والجنوبي للبحر المتوسط .

ومنذ الحملة الصليبية الاولى ، حتى الحرب الاخيرة ، كانت مصر هدفا ثابتا للصليبيين ، وقد فكر القائمون بالحملة الاولى في استمرار زحفهم على الساحل الفلسطيني لمهاجمة مصر ، حتى قبل ان يستقروا ويثبتوا اقدامهم في المنطقة التي وقعت في أيديهم .

لمــاذا ؟؟

لان الصليبيين أدركوا انه لا استمرار ولا استقرار لاحتلالهم في فلسطين ، طالما بقيت القوة العربيه الاساسيه وهي مصر بعيدة عن أيديهم .

وأدركوا ان أمن احتلالهم في فلسطين مفقود ، اذا لم يحتلوا مصر ، التي تستطيع ان تستجمع قوتها ، وتحارب هذا الوجود المعادي لمصالحها ولامنها وأمانها .

وهو نفس المنطق الذي يتخذه العدو الصهيوني اليــوم ذريعه وستارا لطلب الاستيلاء على المزيد من الارض العربية التي سقطت في يده منذ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ .

٢ – ويحاولون غزو مصر

قال الوالد لابنــه :

جاءت الحملات الصليبية على الوطن العربي في وقت أصاب الضعف والانحلال جسد الدولة الفاطمية التي كانت تحكم

مصر وفلسطين والشام . ورغم هذا الضعف ، فان الفاطميين لم يقفوا في مواجهة الغزو الصليبي صامتين صمتا كاملا . لقد قاوموا ما استطاعوا وحاولوا الدفاع . فقد كانوا يعرفون مدى الخطر الذي يتهدد مصر اذا سقطت فلسطين في يد الغزاة .

ويبدو هذا واضحا من موقف الفاطميين في مدينة عسقلان الفلسطينية التي استخدمتها القوات الفاطمية اكثر من مرة مركزا للتجمع والهجوم على المراكز الصليبيــة في فلسطين وشهدت المدينة عدة جولات بين الفاطميين والصليبيين .

كان الصليبيون يدركون أهمية عسقلان كمدينة بحريــة وكخطوة في الهجوم على مصر ، كما ادرك الفاطميون أهمية المدينة في الدفاع عن مصر وفي حصار الامارات الصليبية .

لقد استولى الصليبيون على مدينة القــدس في ١٥ يوليو ١٠٩٩ ولكن عسقلان لم تسقط في يدهم الا بعد أكثر من نصف قرن ، وعلى وجه التحديد في ٢٢ اغسطس ١١٥٣ وبسقوطها بدأ التهديد الصليبي الفعلي لمصر .

وفي نفس السنة التي سقطت فيها القدس بيد الصليبيين ، فكر أول حاكم للامارة الصليبية في القدس في غزو مصر .

وفيما بين سقــوط القدس وعسقلان تعــددت وتكررت المحاولات الصليبية لغزو مصر . فما ان قامت مملكة بيت المقدس الصليبية واستقرت الى حد ما ، حوالي سنة ١١١٦ حتى كان ملكها بلدوين الاول يدبر لغزو مصر ، بعد أن لمس ضعف الفاطميين .

وفي هذا العام ١١١٦ استطاع بلدوين الاول التقدم نحو ساحل خليج العقبة ، واستولى على مدينة « ايله » واقــام فيها استحكامات عسكرية ، وبنى قلعة حاول منها ان يسيطر على الطريق البري للقوافل بين مصر والشام بحيث يستطيع قطع هذا الطريق ، ووقف الاتصال بين مصر والشام من هذه الناحيــة .

وخطا بلدوين خطوة اخرى ، حينما استولى على قلعة اخرى داخل سيناء ، واستطاع ان يتحكم في شبه الجزيرة .

وفي السنة التالية خرج بلدوين يغزو مصر . وسلك في هجومه الطريق القديم نفسه الذي سلكه جميع من هاجموا مصر من الشرق ، طريق رفح ــ الفرما التي بلغها بلدوين فعلا واستولى عليها وذبح أهلها ، والفرما هي مركز مصري متقدم على الطريق من العريش الى وادي النيل . وفعلا

توجه بلدوين الى داخل الوادي ، ولكــن المرض فاجأه ، واضطره الى أن يعود من حيث أتى . وادركه الموت وهو في طريق العودة ، وقبل ان يصل الى العريش .

ولم تكن هذه نهاية المحــاولات الصليبية لغــزو مصر والاستيلاء عليها كانت مجرد بداية فقط . وتلتها محاولات اخرى . لدرجة ان الصليبيين حاولوا ثلاث مرات في خلال عشر سنوات فقط غزو مصر .

في عام ١١٥٣ جاءت حملة بلدوين الثالث على مصر ، والتي استولى خلالها على عسقلان ، واجتاز نفس الطريق الــى الفرما ، وفشلت هذه الحملة مثل سابقتها .

وفي ١١٦٠ هدد بلدوين الثالث نفسه بغزو مصر ، معتمدا هذه المرة على استغلال الفوضى السياسية السائدة داخلها. ولم يثنه عن ذلك سوى تعهد الفاطميين بدفع جزية قدرهــا ١٦٠ الف دينار كل سنة .

ولم يمض وقت طويل حتى عاد عموري الاول خليفة بلدوين الثالث في مملكة بيت المقدس يهدد بغزو مصر للمرة الثالثة ، وحاول أن يبرر الغزو بأن مصر لم تف بوعدها بدفع الجزيــة السنوية ، واجتاز عموري سيناء ووصل الى مدينة نابلس ، وحاصرها . وحينما انسحب هذه المرة ، كان قد لمس عن قرب مدى الضعف الذي بلغه النظام القائم فيها ، بحيث يسهل غزوها والاستيلاء عليها ، مما حفزه على العمل الجــدي لتحقيق اطماعه فيها لتأمين مملكته في بيت المقدس .

وحينما يعاود عموري الهجوم على مصر بعد ذلك بسنوات قليلة ، تكون مصر قد بدات مفتوحة على الشام ، وبــدات المواجهة الحقيقية ضد الصليبيين ، وضد محاولاتهم المستمرة لغزو مصر . وذلك بخلق الجبهة العربية الموحدة ضد الغزو الاجنبي والخطر الخارجي .

٣ ــ حكاية شاور وضرغام

قال الوالد لابنــه :

انسحب عموري الاول من مصر ، وهو يحدث نفسه بان الانسحاب لن يكون هذه المرة الا بداية لغزوة جديدة ، وحملة

اخرى يستولي بها على « مركز القوة العربية » ، لانه بدون ذلك لن يستقر الامر للصليبيين في فلسطين .

كانت هجمات وتحركات الصليبيين ضد مصر تنطلق من عبارة نطقها احد اصدقائهم وهي ان «مفتاح القدس في مصر» فهزيمة مصر هي التي تكفل الاستقرار والاستمرار للصليبيين في حكم فلسطين .

ولم يمض عام على انسحاب عموري من مصر حتى كان الخلاف بين شاور وضرغام يدعوه الى احتلال مصر .

كان شاور يتولى منصب الوزارة في مصر ، وهو منصب كان يجعله الحاكم الفعلي للبلاد . واستطاع ابو الاشبال ضرغام بن عامر ان يطرد شاور من هذا المنصب .

وخلال ذلك كان نور الدين محمود قد استطاع توحيد بلاد الشام تقريبا ، فلجأ شاور اليه يطلب نجدته ومساعدته في استرداد منصبه الوزاري .

وتعهد شاور لنور الدين بأن يدفع له ثلث دخل مصر نظير هذه المساعده ، وتردد نور الدين في قبول هذا العرض ، ومع الحاح شاور ، ولادراك نور الدين لاهمية مصر ارسل مع شاور في عام ١١٦٤ حملة قادها أسد الدين شيركوه ، ومعه ابن اخيه الشاب صلاح الدين .

لم يقف ضرغام ساكتا ولا ساكنا . وسعى بدوره للاستنجاد بالصليبيين واغراهم بأن يعقد معهم معاهدة تجعل مصر تابعة لهم .

لم يكن عموري يستطيع مقاومة هذه الصفقة . وتقدم لمساعدة ضرغام ولكن شيركوه سبقه في الوصول الى القاهرة . وعندئذ حاول ضرغام الفرار واللجوء الى حلفائه ، وادركه الناس وقتلوه .

عاد شاور الى منصب الوزارة وكان عليه ان يفي بوعده وعهده لنور الدين وقائد جيشه ، لكنه لم يفعل بل حاول الغدر بأسد الدين شيركوه ، ورفض ان يدفع ما اتفق عليه ، وطلب اليه الانسحاب من مصر .

لم يقبل شيركوه اوامر شاور ، واحتل بلبيس والشرقية ، فاستنجد شاور بالصليبيين الذين كانوا اعداءه بالامس ، فقد كان همه محصورا في الحكم والاستمرار فيه . وامثال شاور — قديما وحديثا — اذا وصلوا الى كرسي الحكم يتحالفون مع الشيطان ليظلوا حاكمين .

استجاب عموري لدعوة شاور . وجاء الى مصر من جديد وشارك شاور في فرض الحصار على قوات شيركوه في بلبيس، ولم ينسحب منها الا بعد الاتفاق على ان يغادرها هو وشيركوه .
وظن شاور ان الجو قد خلا له في القاهرة ، ليفعل بمصر ما يريد ، فاستبد ، واساء السياسة في الرعية ، كما اساء معاملة الخليفة العاضد بالله .
وارسل العاضد الى نور الدين يستنجده ، ولبى نور الدين الدعوة ووجه شيركوه مره ثانية الى مصر وكان ذلك في يناير (كانون الثاني) ١١٦٧ .
أما شاور فقد استنجد مرة اخرى بالصليبيين وجاء عموري للمرة الثالثة بغزو مصر ويعمل على عدم وقوعها في يد قوات نور الدين ، وحتى لا تتوحد جنود مصر والشام فتكون خطرا على الصليبيين ، ورحب شاور بمنقذيه .
ولكن قوات نور الدين انسحبت من مصر بمقتضى اتفاق بينهما ، وعقد شاور اتفاقا مع حلفائه الصليبيين الذين اصبح لهم « مندوب » في القاهرة يشترك في الحكم مع شاور الذي تعهد أيضا بدفع ضريبة سنوية .
ولم يف شاور بتعهداته للصليبيين ، وقلب سياسته واتجه الى نور الدين يدعوه الى مساعدته للخلاص من الحماية الصليبية .
علم عموري بخطة شاور . وحاول ان يقطع عليه الطريق ، فجاء غازيا مصر المرة الرابعة . وتمكن من الوصول الى بلبيس والإستيلاء عليها .
وتوجهت قوات عموري الى القاهرة ، واقتربت منها ، وعزم أهلها على مقاومته ، واستعدوا للمقاومة ، بينما كانت قوات شيركوه تقترب بدورها من العاصمة المصرية . واضطر عموري الى الانسحاب بقواته ، واستقبلت مصر شيركوه وابن أخيه صلاح الدين استقبالا حسنا . وخلع الخليفة على شيركوه منصب الوزارة .
حاول شاور من جديد الاستنجاد بالصليبيين . ودعاهم الى غزو مصر ولكن ما في كل مرة تسلم الجرة . فقد قتل شاور في يناير (كانون الثاني) ١١٦٩ وبعد ذلك بشهرين توفي شيركوه وخلفه ابن اخيه صلاح الدين في منصب الوزارة.
ويتولى صلاح الدين الوزارة في مصر ، دخلت القصة فصلا

جديدا في الصراع العربي ضد الصليبيين .

٤ ـ صلاح الدين .. وحطين

قال الوالد لابنـــه :

كان صلاح الدين شابا في الحادية والثلاثين من عمره حينما اصبح وزيرا في مصر . وكان وصوله الى هذا المنصب يعني تغييرا كبيرا في الخريطة السياسية للمنطقة .

لقد تولى صلاح الدين الوزارة بعد خبرة طويلة وشاقة في الصراع ضد الصليبيين من اجل الفوز بمصر . وبوجوده في القاهرة اصبح يتوفر الاتفاق بين الحكام في مصر والشام . وهو الاتفاق الذي كان مفقودا قبل بسبب الخلاف بين الحكم العباسي في الشام ، والحكم الفاطمي في مصر .

ولم يكن قد انقضى عام على وصوله الى السلطة الفعلية في مصر ، حتى جاءت حملة كبيرة على مصر اشترك فيهـــا الصليبيون مع الامبراطورية البيزنطية . ووصلت الحملة الى دمياط وحاصرتها ٥٠ يوما كاملة .

اكدت هذه الحملة لصلاح الدين ان الاطماع الصليبية في مصر كبيرة وواسعة وان الضرورة تفرض عليه القضاء على الاحتلال الصليبي في فلسطين الذي يهدد مصر ، ويستهدفها .

كان الامر يقتضي سد الجبهة الجنوبية ضـــــد الكيان الصليبي من اجل محاصرته وعزله تمهيدا للقضاء عليه ، وكان ذلك هو اول ما فكر فيه صلاح الدين ، حينما هاجم حصن الكرك في جنوبي فلسطين .

وشن صلاح الدين عدة هجمات ضد الصليبيين في فلسطين فيما بين ١١٧٩ و١١٨٢ وفي هذا العام الاخير لحقته هزيمـــة عند الرحلة ، ولكن الهزيمة لم تقعده عن مواصلة الكفاح ، بل شحذت عزيمته اكثر . وقضى بعدها خمس سنوات يستعد لمعركة كبيرة فاصلة ، اختار هو موقعها ، واعد لها قواته بشكل جيـــد .

وكانت المعركة الفاصلة هي ((حطين)) عند بحيرة طبرية في عام ١١٨٧ ، وقد لحقت الصليبيين فيها هزيمة كبيرة ، اذ

فقدوا ٣٠ الف قتيل و٣٠ ألف اسير وقعوا في يد صلاح الدين.

وكانت حطين مقدمة لتحرير القدس في العام نفسه .

وكان تحرير المدينة المقدسة رمزاً لتحرير فلسطين ، وتاكيدا لحقيقة ان وحدة القوى العربية شرط لتحرير اي ارض عربيه محتله ، وتأكيدا لحقيقة ان حرية الوطن العربي لا يمكن ان تتجزا .

وفي يوم تحرير القدس ، وفي قمة النصر العربي على الصليبيين ، اعطى صلاح الدين ، القائد المنتصر ، درسا رائعا في التسامح ، لم يغرق المدينة في بحر من الدماء ، بل عفى عن الاسرى واحسن معاملتهم وبادر الى اصلاح أسوار المدينة التي تأثرت بالحصار .

وكان سلوكه العربي هذا يختلف تماما عن سلوك الصليبيين عند غزو المدينة المقدسة ، فقد قتلوا ٧٠ الف نسمة ، وحولوا المدينة الى بركة دماء . وهو نفس السلوك الذي درج عليه اعداء العرب حينما يغزون مدينة الانبياء .

وبتحرير القدس ، انفتح الطريق أمام صلاح الدين ليواصل تحرير بقية الاراضي العربية في فلسطين ، ففتح مدنا وحصونا عربية كثيرة كانت بيد الصليبيين .

تحصن الصليبيون في مدينة « صور » الساحلية ، وجعلوها قلعة لهم ، ودعوا ملوك اوروبا الى مساعدتهم ونجدتهم .

وتسارع ملوك اوروبا ، وأباطرتها الى تقديم العون والمساعدة للصليبيين ، وجاء من بريطانيا ريتشارد الملقب بقلب الاسد ، كما جاء فيليب اغسطس ملك فرنسا ، وفردريك باربروسا امبراطور المانيا وغيرهم ، انها اوروبا كلها تواجه العرب ، وتريد منعهم من ان يكونوا قوة لها وزنها .

وتجددت المعارك بين صلاح الدين وبين الصليبيين الذين استطاعوا الاستيلاء مرة اخرى على بعض المدن الساحلية في فلسطين اما صلاح الدين فقد اهتم بأن يحتفظ في يده بالمناطق الداخلية في فلسطين ، وبالقواعد الساحلية الهامة.

وفي عام ١١٩٢ عقد صلح الرملة بين صلاح الدين والصليبيين كان صلاح الدين في حاجة الى هدنة ، بعد سنوات القتال الطويلة .

قبل صلاح الدين في هذا الصلح بسيطرة الصليبيين على المدن الساحلية من صور الى يافا فقط (ضاحية عربية تجاور تل ابيب حاليا) مقابل سيطرة العرب على الساحل جنوب هذه

المدن . وعلى بيت المقدس ، الذي سمح للحجاج المسيحيين الاوروبيين بالحج اليه على ان يأتوا من عكا من ناحية البحر . اما المسيحيون العرب فكان بيت المقدس مفتوحا أمامهم دون قيد ، وكانوا قد اشتركوا في مقاومة الغزاة الاوروبيين ، وفي هزيمتهم .

في العام التالي ، في مارس (آذار) ١١٩٣ توفي صلاح الدين ، بعد نضال مجيد ضد الغزاة ، جعله واحدا من أبرز قادة العرب عبر التاريخ .

٥ ــ ضرورة الوحدة لتحرير فلسطين

قال الوالد لابنه :

أكد كفاح صلاح الدين ، وأكدت انتصاراته من خلال توحيد الشام ومصر ، ضرورة الوحدة لمقاومة الغزو الاجنبي . والاحداث العربية بعد صلاح الدين اكدت الحقيقة نفسها بطريقة اخرى .

في السابعة والخمسين من العمر ، توفي صلاح الدين ، وكان له عند وفاته بنت وحيدة و ١٧ ولدا . وفي السنة التي توفي فيها كانت الدولة التي يحكمها تشمل الشام ومصر وبرقة (ليبيا) والحجاز واليمن ، وارض الجزيرة في العراق . وكان لكل ولاية او اقليم او منطقة حاكم خاص . فلما توفى صلاح الدين ثار الخلاف بين ابنائه وبعضهم ، وبين الامراء والحكام في الاقاليم المختلفة . لقد سعى كل امير الى الاستقلال بالمنطقة التي يحكمها وتطلع الى ان يمد اقليمه وامارته الى ما في يد الامراء الاخرين .

في مصر أعلن العزيز بن صلاح الدين نفسه سلطانا .

وفي دمشق ، اعلن الابن الاكبر لصلاح الدين وكان يسمى الفاضل ــ اعلن نفسه سلطانا . وفي حلب ، أستقل ابن آخر ورفض قبول سيادة اخيه الفاضل في دمشق . وفي حوران ، واليمن ، والاردن ، وأرض الجزيرة قام حكام آخرون يحاولون الاستقلال اما من ابناء صلاح الدين او أخوته ، أو أمرائه على هذه الاقاليم .

اذن ، انقسمت دولة صلاح الدين العربية الموحدة . وكثر حكامها ، وثارت الخلافات بينهم ، واشتعلت نيران المنافسة، وتحولت أحيانا الى قتال .

ولم يستطع العادل ، أخ صلاح الدين ، اعادة توحيد الدولة الا في عام ١٢٠١ وبعد ثماني سنوات من وفاة صلاح الدين .

كان الخلاف بين خلفاء صلاح الدين فرصة ثمينة للعدو الصليبي الذي لم يقف ساكنا ، فاستغل الخلافات العربية في القيام ببعض الهجمات واحتلال اراض عربية جديدة .

وكان نجاح العادل في استعادة توحيد الدولة ، محاولة ناجحة لوقف التدهور في الصف العربي ، ولوقف الصليبيين عن تحقيق انتصارات أخرى ولو كانت محددة . وعمل العادل على احياء الامجاد العربية التي توقفت بوفاة صلاح الدين .

ولم تحظ جهود العادل بالطبع برضى الصليبيين الذين رأوا فيه عدوا عنيدا ، أعاد مصر ، مرة أخرى وبسرعة ، الى مركز القوة في المنطقة . ورأوا أن مفتاح القدس الذي ضاع منهم يمكن أن يستردوه اذا احتلوا مصر .

وتجددت الدعوة في اوروبا الى ضرورة غزو مصر . وجاءت اكثر من حملة هدفها الاستيلاء على مصر ، وزعزعة مركز القوة العربية .

جاءت حملة عن طريق البحر ونزلت في مدينة رشيد ، وتوجهت منها الى فوة ، ثم تراجعت بعد عقد هدنة ، اذ كان العادل مشغولا في مكافحة هجمات بعض الامراء والاتباع العرب الذين حاولوا الاستقلال او التمرد ، والخروج على الدولة المركزية .

ولكن الصليبيين لم ييأسوا من محاولات غزو مصر ، كانوا يحاولون ذلك بشتى الطرق التي اختلطت فيها الاساطير والخرافة بالاستعداد الحربي الكامل . لدرجة انهم حاولوا غزو مصر بحملة غريبة وعجيبة ، كانت قوتها عدة آلاف من الاطفال الاوروبيين . فقد اعتقدت الدول الاوروبية بنبوءة ، انتشرت في ذلك الوقت ، تقول بأن صبيا طاهرا نقيا هو الذي سيستطيع استرجاع بيت المقدس . ولما كان مفتاح بيت المقدس في مصر فقد جاء أطفال اوروبا لغزو مصر ، ولكن حملتهم لقيت الفشل ، واسرت مصر أطفال اوروبا ، واحسنت معاملتهم ، ثم ردتهم الى دولهم خائبين .

٦ ــ دمياط تدافع عن فلسطين

قال الوالد لابنه :

ان المناوشات الصليبية ، والغزوات الاوروبية ضد دولة العالم اقنعت اوروبا بأن هذه الدولة لم تصل بعد الى حد القوة التي كانت عليها في ظل صلاح الدين . واغراهم هذا بتجديد محاولاتهم لغزو مصر . وجاءوا الى مصر مرة اخرى عن طريق البحر ، ولكن من خلال فلسطين .

جاءت حملة صليبية جديدة تسمى (الحملة الصليبية الخامسة) الى عكا وفتحتها ، ثم استولت على صيدا ، واستكملت الزحف نحو مصر نحو مدينة دمياط ، التي حاصروها اربعة اشهر كاملة ، ظلت المدينة خلالها صامدة بقوة ، فقد أبدى ابناؤها مقاومة شجاعة وجسورة ، الهبت الشعور الوطني في مصر كلها ، ولذلك اهتزت مصر ، حينما سقطت دمياط الباسلة في يد الصليبيين عام ١٢١٨ . وحزن العادل حزناعميقا لسقوطها ، ومات من الغيظ والحزن .

خلف الكامل والده العادل في حكم مصر ، وكان هدفه الاول طرد الصليبيين من دمياط . وبدأ يستعد لذلك ، وسد النيل في وجه الصليبيين ليمنع تقدمهم ، باغراق السفن فيه . وتقدم للمعركة . ولكن احد امرائه حاول طعنه من الظهر ، بتدبير مؤامرة ضده .

علم الكامل بأنباء المؤامرة ، وحاول ان يتقيها بالفرار من أرض المعركة . ولم ينقذ الكامل من هذه الازمة سوى الجيش الذي جاءه من دمشق بقيادة اخيه المعظن ، حاكمها ، الذي أعانه في ان يحتفظ بعرشه بينما بقيت دمياط في يد الصليبيين.

حاول الكامل ان يساوم الصليبيين ، ليحافظ على دمياط وينقذها من ايديهم . وقدم لهم تنازلات كبيرة ، اذ قبل التنازل عن القدس ووسط فلسطين ومنطقة الجليل ، ويدفع للصليبيين جزية سنوية .

رفض الصليبيون تنازلات الكامل . كانوا يريدون اكثر من ذلك . تراجع الكامل مرة اخرى ، وقبل بالتنازل عن القدس ، وفلسطين كلها ، على ان تبقى منطقة (شرق الاردن) بيده ، وحتى هذه التنازلات لم يقبلها الصليبيون .

كان الصليبيون يريدون مصر نفسها ، فقد كانوا يعتقدون ــ بعد كل هذه التجارب ــ انه لا جدوى من فلسطين اذا

ظلت مصر بعيدة عن ايديهم .

وبداوا يزحفون نحو القاهرة من دمياط . وابتلعت الدلتا المصرية الواسعة جنود الصليبيين . وجمعت مصر قوتها ، وواجهت الصليبيين مواجهة لم يكونوا يتوقعونها . فاضطروا الى طلب وقف القتال ، وعرضوا هم هذه المرة الانسحاب من دمياط دون اي قيد او شرط ، سوى تبادل الاسرى ، وعقد هدنة مدتها ٨ سنوات .

واذا كانت المقاومة المصرية في مواجهة الصليبيين قد انقذت القدس التي قبل الكامل بالتنازل عنها ، فانها اثبتت ان القتال وحده هو الوسيلة الوحيدة لاجبار العدو على التنازل ، أما مساومة العدو وتقديم التنازلات له ، فيفتح الباب نحو تقديم تنازلات اكثر واكثر .

وفي ذلك الوقت كانت الخلافات بين الحكام الامويين تتزايد ولا تقل ، وكانت هذه الخلافات أحد الاسباب التي ادت بالكامل بعد ذلك الى التنازل عن القدس وبيت لحم للصليبيين ، ثم تنازل الكامل في مرحلة تالية في اتفاقية يافا سنة ١٢٢٩ عن الناصرة والجليل الغربي وصيدا وما حولها واحتفظ فقط بالمسجد الاقصى .

واثبت الكامل بذلك ان التنازل طريق لا نهاية لها . كما اثبتت الاحداث أن الخلافات بين الحكام العرب ، وبين الممالك العربية ، لم تفيد اعداء العرب اكبر فائدة .

٧ — من دمياط الى المنصورة

قال الوالد لابنه :

مرت سنوات، توفي خلالها الكامل محمد، وخلفه العادل ابو بكر ، ثم تلاه الصالح ايوب في ١٢٤٠ . وفي السنة الاخيرة جاءت الحملة الصليبية السابعة ، التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا والتي قصدت دمياط في ١٢٤٩ .

كان لويس التاسع في حملته هذه يتابع خط الحملات الصليبية السابقة في أن البدء بغزو مصر هو الوسيلة الصحيحة للاستيلاء على بيت المقدس ، واختار مثل سابقيه البدء بدمياط ، واتخاذها نقطة وثوب الى داخل مصر .

وصلت قوات لويس التاسع الى دمياط واستولت عليهـا ، في وقت كان فيه الصالح ايوب مريضا ، ولكن الصليبيين لم يتقدموا بسرعة الى دمياط . واخذت القوات المصرية والمواطنون المصريون من البدو في مناوشتهم . وحين أحس الصالح ايوب بعض العافية تقدم لقتال الصليبيين ، ووصل الى المنصورة وعندئذ بدأ الصليبيون يزحفون من دمياط جنوبا الى المنصورة .

وتوفي الصالح أيوب وسط ظروف حرجة . وأخفت ارملته شجرة الدر النبأ عن رجاله وأتباعه . وسارعت الى دعوة ابنه طوران شاه ليتولي الحكم .

وتسرب خبر وفاة الصالح ، فرفع الروح المعنوية للصليبيين وحاولوا الاستفادة بذلك في التعجيل بالهجوم .

وبدورها ، سارعت القوات المصرية الى التقدم ، وعملت على محاصرة القوات الصليبية واستفادت في ذلك بالترع والقنوات الموجودة في المنطقة . واستخدمتها في شن حرب عصابات . وتطورت المعركة الى حرب داخل مدينة المنصورة نفسها .

عندئذ شعر لويس التاسع بأن قواته في وضع حرج . فتقدم بعرض الصلح ، قبل فيه بالتنازل عن دمياط مقابل الحصول على بيت المقدس .

رفض الجانب المصري هذا العرض . وشدد حصاره على أعدائه . وطردهم من المنصورة . وبدأ الصليبيون يتراجعون نحو دمياط . فطاردتهم القوات المصرية ، والحقت بهم هزيمة كبيرة عند فارسكور . وسقط لويس التاسع نفسه أسيرا ، بينما سقط جيشه بين قتيل واسير .

سجن لويس التاسع في دار قاضي المنصورة ابن لقمان ، وقام على حراسته الطواشي صبيح . واكرم طوران شاه اقامة لويس التاسع ، ولكنه ضغط عليه للحصول على تنازلات في فلسطين . وطلب طوران شاه فدية كبيرة وتسليمه دمياط مقابل اطلاق سراح ملك فرنسا .

قبل لويس التاسع هذه الشروط .

هكذا افتدت دمياط المدينة المصرية ، بيت المقدس مرتين ، وانقذتها من يد الصليبيين .

وعادت رايات مصر ترفرف فوق دمياط في مايو (ايار) ١٢٥٠ ، بعد انسحاب الصليبيين منها .

كان لويس التاسع شجاعا وعنيدا ، فرغم هزيمته المرة لم يرحل من دمياط الى فرنسا ، وانما توجه الى الحصن الصليبي في عكا يحاول ان يجرب شجاعته مرة اخرى. وانطلق صوت مصري يحذره :

دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صبيح

وكانت عكا اخر الحصون في يد الصليبيين ، وقد استردها السلطان الاشرف قلاوون سنة ١٢٩١ ، وكان استردادها هو المنظر الاخير ، في الفصل الاخير من قصة الغزوات الاوروبية ضد الوطن العربي، والتي حملت اسم الصليب زورا.

٨ ــ حطين اخرى .. عين جالوت

قال الوالد لابنه :

قبل ان يتم انسحاب الصليبيين في ٧ ايار (مايو) من دمياط ، كان طوران شاه يسحب انفاسه الاخيرة من هذه الحياة ومات مقتولا . وبموته انتهت الاسرة الايوبية في مصر التي اسسها القائد العظيم صلاح الدين الايوبي ، بينما استمرت بعض اجزاء الشام تحت ولاية عدد من امرائها سنوات اخرى .

ومع موت طوران شاه انتهى فصل وبدأ فصل جديد ، ليس في تاريخ مصر وحدها ، بل في المنطقة العربية ، وخاصة المنطقة التي تضم مصر وفلسطين والشام. لقد انتهى حكم الايوبيين وبدأ حكم المماليك الذين وضعوا نهاية الحملات الاوروبية الصليبية .

ويستمر حكم المماليك في مصر والشام وفلسطين لاكثر من قرنين ونصف القرن ، فقد بدأ في ١٢٥٠ وانتهى في ١٥١٦ حينما غزا العثمانيون المنطقة وبدأوا استيلائهم عليها .

ولم يمض على قيام دولة المماليك اكثر من اربعين سنة ، الا وكان قد تم تحرير الارض العربية من الغزاة الاوروبيين . وقبل ذلك بست سنوات تمكنت مصر في عين جالوت من صد التتار ، والحاق الهزيمة بهم .

وفي عين جالوت لم تدافع مصر عن نفسها ، او عن

فلسطين فقط بل أنقذت أيضا حضارة العالم من بربرية التتار ، وهم قبائل زحفت نحو الوطن العربي من اواسط اسيا وكانت سياستهم لا تعرف الا تدمير الحضارات وتخريب المدن والقرى .

وكان تخريب بغداد عام ١٢٥٨ اكبر شاهد على سياسة التتار ، لقد حولوها الى بركة من الدماء وقتلوا ٨٠٠ الف من سكانها .

وفي عين جالوت أوقفت مصر زحف التتار ، وأجبرتهم على التراجع .

ودروس عين جالوت كثيرة ومفيدة للعرب في حاضرهم . الاحداث التي سبقت عين جالوت تتشابه مع صورة الاحداث التي جرت عام ١٩٥٦ في الغزو الثلاثي (الانجليزي ـ الفرنسي ـ الاسرائيلي) لمصر ، حينما اتفقت الدول الثلاث على ان تهاجم اسرائيل مصر ويكون الهجوم وسيلة لتدخل فرنسي انجليزي يبعد جيش مصر في سيناء .

وعلى هذاالنحو ، وقبل عين جالوت ، ارسل التتار الى لويس التاسع بعثة تدعوه الى التحالف معهم ضد مصر ، واجرت البعثة التترية محادثات مع الملك الفرنسي تتلخص في قيام التتار بالهجوم على المشرق العربي واحتلاله ، بينما يقوم لويس التاسع في نفس الوقت بالهجوم على مصر واحتلالها وبذلك لا تستطيع قوات الاقاليم العربية مساعدة مصر ولا تستطيع مصر تقديم مساعدتها لهذه الاقاليم .

اما الدرس الاخر من عين جالوت ، فقد جاء على يد الامير ركن الدين بيبرس من التبعية لحاكم حلب العربي ، لانه تهاون في مواجهة التتار ، وحاول محالفتهم ، ودعا بيبرس الى توحيد ((القوى العربية)) في القتال ضد التتار ، وضم جيشه الى جيش مصر .

ورغم موقف الملك الناصر امير حلب في التهاون ، والمهادنة، فحينما ارسل طالبا مساعدة مصر ضد الغزو التتري ، لم ترفض مصر ، بل ابدت استعدادها لنجدة الشام ، والدفاع عن حصنها الشرقي .

وتقدم التتار نحو حلب ودخلوها ، بعد دخول بغداد بسنتين اي في عام ١٢٦٠ ، عندئذ لم يجد حاكمها في نفسه الجراة للذهاب الى مصر ، اما الجزء الاساسي من قواته ، فلم يتردد في الدخول تحت لواء القوات التي كانت مصر

تعدها لقتال التتار ، الذين تقدموا لغزو مصر ، ووقفوا علـــى بابها ، حينما بلغوا غزة .

ظن قائد التتار واسمه هولاكو انه بدخول غزة قد اقترب من هدف احتلال مصر ، اذ كان يدرك أن بوابة مصر الشرقية اصبحت بيده .

واصبح الخطر يهدد مصر . فقد بعث هولاكو برسالـــة شديدة اللهجة يطلب من مصر الاستسلام ، وجمعت مصر ـــ كحالتها في هذه الاحوال ـــ ارادتها ، وقررت انقاذ الشام ، لتصد الخطر الزاحف نحوها .

وخرج الملك المظفر قطز وتحت امارته ((عساكر مصر)) وقد انضمت اليها عساكر من الشام ، وكان الامير بيبرس الـــذي جاء بقواته من حلب ، في مقدمة الجيش العربي الذي تقـــدم وقابل التتار في غزة وهزمهم واجبرهم عـــلى الانسحاب . وبسرعة تقدمت القوات المصرية ـــ العربية نحو الشمال ، ومضت تتعقب قوات العدو المنسحبة وتناوشها وتخـــوض ضدها معارك صغيرة ومتناثرة .

وفي عين جالوت ، بين نابلس وبيسان كان اللقاء الحاسم في الثالث من سبتمبر (أيلول) عام ١٢٦٠ . كانت الخســـارة هنا تعني الهزيمة الكاملة لمصر ، وللعرب . وفي بداية المعركة صاح قطز صيحته المدوية : ((واسلاماه)) . وقاتلت قواتـــه ببسالة لا مثيل لها ، والحقت بالتتار هزيمة كبرى ، أبيد فيها نصف قواتهم .

وخلف القوات المصرية ـــ والعربية معها ، وقف الفلاحون الفلسطينيون من أهل المنطقة المحيطة بعين جالوت يؤيـــدون القوات العربية ، ويشدون ازرها ، ويقدمون لها وسائـــل المعونة الممكنة .

ثم انتقلت المعركة الى بيسان التي فرت اليها قوات التتار . وفي بيسان لحقت بالتتار هزيمة جديدة .

وبذلك ثأر العرب في عين جالوت وبيسان لاخوانهـــم وقتلاهم في بغداد وحلب والمدن العربية الاخرى التي دمرهـــا التتـــار .

والنصر في عين جالوت قاد الى الوحدة بين مصر والشام من جديد . فبعد النصر ، توالت امارات الشام ((الايوبية)) تعلن عودتها الى الوحدة مع مصر ((المملوكية)) .

ومرة اخرى درس اخر بجانب العديد من الدروس : على ارض فلسطين كان النصر . ومن فوق ارض فلسطين بدات الوحدة بين مصر والشام تعود رسميا ، بعد أن كانت قد عادت شعبيا وفعليا . ومهدت الطريق للنصر وطرد الغزاة وهزيمتهم على يد ((العرب المتحدين)) الذين نسجوا من النصر ثوبـــا امن للوحدة قادتهم بعد سنوات قليلة الى تصفية الجيـــوب الصليبية والقضاء عليها .

الفصـــل الرابــع

ولايتـــان عثمانيتـــان

١ ـ مـــرج دابـــق

قال الوالد لابنه :

قامت دولة المماليك في مصر سنة ١٢٥٠ ، وانتصرت في عين جالوت في سنة ١٢٦٠ وأعادت توحيد مصر والشام . وفـــي سنة ١٢٩١ انتهى الوجود الصليبي في فلسطين . وظلـــت القاهرة هي العاصمة المركزية لدولة شملت مصر وفلسطـــين والشام والحجاز ، وظلت كذلك حتى دخلها العثمانيون فـــي ١٥١٧ ، وشنقوا آخر المماليك قنصوه الغوري على **باب زويلة.**

وقد بدأ ظهور الدولة العثمانية في اواخر القرن الثالـــث عشر في مقاطعة صغيرة في شمال غرب تركيا . وما لبثت ان امتدت وتوسعت حتى سيطرت على تركيا كلها. ومنها سارت غربا ، حتى سقطت القسطنطينية في ايدي العثمانيين سنة ١٤٥٣ .

ومع سقوط القسطنطينية في أيديهم ، بدأ العثمانيون يولون أنظارهم نحو الشرق ، خاصة نحو البلاد العربية ، وجاء ذلك على يد سلطانهم التاسع وهو سليم الاول .

استولى سليم الاول على العراق ، وبدأ يزحف نحو الشام ، واعلن الحرب على السلطان قنصوه الغوري الذي كان يحكم الشام ومصر والحجاز .

وفي عام ١٥١٦ تقدم قنصوه الغوري نحو مرج دابق ، قرب حلب بشمال سوريا ، ليواجه قوات الغزو العثماني ، ويصدها

عن احتلال الحصن الشرقي للدفاع عن مصر .
وفي مرج دابق هزم العثمانيون قوات قنصـــوه الغوري ، وبهذه الهزيمة انفتحت بوابة مصر الشرقية عبر فلسطـــين امام العثمانيين لدخول مصر .
وفي ٢٢ يناير (كانون الاول) ١٥١٧ دخلت قوات سليـــم الاول القاهرة . وخضع الحجاز بطريقة الية لحكم السلطان الجديد ، ثم امتدت سيطرة العثمانيين فشملت جميع الاقطار العربية عدا مراكش (المغرب) .
وكان الغزو العثماني لمصر ، بعد استيلائه على الشام ، تأكيدا آخر لحقيقة أن من يحكم الشام يستطيع ان يتحكم فـــي مصر ، كما ان استمرار هذا الحكم في البلدين يؤكد حقيقة ان حرية احدهما من حرية الاخر .
وفي الفترات التي ظهر فيها حاكم « متمرد » في الشام او في مصر ضد الحكم العثماني ، كان هذا الحاكم لا يعدم صـــدى لموقفه في البلد الاخر ، يؤيده ، ويؤازره ، ويتضامن معه ضد العثمانيـــين .
في مصر ثار علي بـــك الكبير شيخ البلـــد ، ضد الحكم العثماني ، فآزره وتحالف معه الشيخ ضاهر العمر امير عكا .
وكان هذا التحالف والتعاون ضد الحكم العثماني وجها من الوجوه العديدة لصورة واحدة هي « وحدة التاريخ » بـــين فلسطين ومصر .

٢ ـ الحملة الفرنسية على مصر وفلسطين

قال الوالد لابنه :

كانت مصر وفلسطين ولايتين عثمانيتين ، حينما جـــاءت الحملة الفرنسية في عام ١٧٩٨ لغزو مصر وانتزاعها من يـــد الاتراك العثمانيين ولم تكن الحملة موجهة الى مصر فقط ، بل كانت تستهدف فلسطين أيضا ، سواء لتوسيع دائرة الاحتلال ، أو لدعم قاعدته في مصر .
وقد كتب نابليون بونابرت قائد الحملة الفرنسية الـــى حكومته يحاول تبرير حملته على فلسطين فقال :

« ان هدفي هو دعم فتح مصر ، بهزيمة الاعداء على حدودها ، لامنع نزول جيش انجليزي اوتركي فيها ، ولكي احرم الاسطول الانجليزي (المعادي لفرنسا) الذي يتجول في البحر المتوسط من قواعد تموينه في شواطيء فلسطين » .

كان نابليون يدرك ، دون شك ، ذلك الترابط بين مصر وفلسطين ، ويعرف مدى أهمية فلسطين للاحتفاظ بمصر في قبضة الغزو الفرنسي .

وفي الوقت ذاته لم يكن يخفى على نابليون ان الجزار حاكم عكا (فلسطين) قد استعد لحشد جيشه ، والتوجه به برا لغزو مصر ، ومساعدتها في طرد المستعمر الفرنسي .

وقرر نابليون — بمعرفته العسكرية بتاريخ المنطقة — ان خير دفاع ضد هذا الغزو من فلسطين هو الهجوم على جيش الجزار في داره ، لا انتظاره في مصر .

وكان حاكم عكا ، قد رحب بابراهيم بك — حاكم مصر — الذيهرب من وجه الغزو الفرنسي، والتجأ الى الجزار فآواه.

وفي عكا ، تحصن الجزار ، واستعد لمقاومة الجيش الفرنسي . بينما كان نابليون يحلم باسقاط عكا خلال أيام .

واستفاد الجزار في مقاومته للفرنسيين بأعدائهم من العثمانيين والانجليز ، ولكنه اعتمد في الوقت نفسه على مساعدات اهل فلسطين وبلاد الشام الاخرى . فقد طلب الجزار من اهالي نابلس الفلسطينية ومن حاكمي حلب ودمشق مساعدته لصد العدو الفرنسي .

واستجاب هؤلاء لنداءالجزار . وفي الجليل الفلسطيني تجمع عدد كبير من المقاتلين الذين وفدوا من نابلس وغيرها ، كما بعث والي دمشق بجيش اخذ يزحف نحو عكا .

ونتيجة لذلك ، ولكي يضرب المدن الفلسطينية الداخلية ، توجه نابليون الى الناصرة ، وتمكن من دخولها . وفي نفس الوقت احرقت قواته مدينة جنين الواقعة في اقليم نابلس ، كما احرقت قرية اخرى ، عسى ان يمنع ذلك المواطنين الفلسطينيين من مساعدة الجزار في عكا .

ولكن ذلك كله لم يضعف مقاومة عكا ، التي صمدت بشجاعة في وجه الحصار الفرنسي ، الذي فشل في اسقاطها وانسحب نابليون من امام اسوار عكا الحصينة ، وعاد الى القاهرة مهزوما بعد ان اضاع نصف القوة التي حاصر بها

القلعة الفلسطينية .

وكان فشل نابليون في عكا لا يقل اثره عن تحطيم اسطوله في ابي قير المصرية ، عند بداية الغزو ، فقد كانت عكا وابو قير — ولا تزالان حتى الان — تتبادلان فيمــا بينهما الاهمية الاستراتيجية في هــذه المنطقة مـــن سواحل البحر الابيض المتوسط ، فمن يجمعهما بيـــده ، يمتلك ناصية الامور فوق السواحل الجنوبية والشرقية لهذا البحر .

والفشل الذي لقيه نابليون في عكا ، كان بداية لفشل حملته على مصر ، وهروبه منها بليل .

ومن قبل ، انقذت دمياط المصرية ، القدس الفلســطينية مثلما انقذت عكا الفلسطينية هذه المرة مصر مـــن استمرار واستقرار الاستعمار الفرنسي .

٣ ـ خبايا صهيونية في الحملة الفرنسية

قال الوالد لابنه :

ان الحملة الفرنسية على مصر وفلسطين قد حملت في طياتها منذ اواخر القرن الثامن عشر بعض مقدمات الغزو الصهيوني للمنطقة منذ ذلك الوقت المبكر .

لقد حدثت الثورة الفرنسية في سنة ١٧٩٨ ، في وقت كان « اليهود » في اوروبا يتعرضون لالوان مختلفة من الاضطهاد ، اذ كانوا يعيشون في عزلة عن بقية المواطنين الاخرين ، داخل احياء خاصة بهم كانت تسمى « الجيتو » وكان يفرض على الانسان اليهودي ان يضع في ملابسه شارة خاصة تميزه عن سائر المواطنين .

وكان شعار الثورة الفرنسية هو الحرية والاخاء والمساواة بين البشر جميعا ، بصرف النظر عن دينهم او عقيدتهم او فكرهم . وكان من حق اليهود ـ وهم مضطهدون ـ ان يحاولوا الاستفادة من هذه المبادىء العظيمة الرائعة ، للتخلص ولو بعض الشيء من مظاهر الاضطهاد المفروضة عليهم في فرنسا وفي اوروبا بالخروج من اسوار « الجيتو » او المعزل المفروض عليهم ، وبارتداء الملابس العادية مثل سائر خلق اللـه .

ولكن نابليون لم يرحب بذلك ، وحينما اصبح الرجل القوي في فرنسا ، عارض مظاهر تحرر اليهود ، وحاول اعادة اليهود في فرنسا الى احيائهم المعزولة .

ولكن نابليون غير سياسته هذه فجأة ، ورحب بتحرير اليهود ، وارتبط موقفه الجديد هذا بحملته على مصر وفلسطين . فقد اكتشف في اليهود جانبا يستطيع الاستفادة به في هذه الحملة ، اذ كانت اوروبا تشهد في ذلك الوقت بداية الدعوة لعودة اليهود الى فلسطين كوسيلة للتخلص من وجودهم في اوروبا ، وليكونوا قاعدة اوربية في هذه المنطقة .

لذلك ، بادر نابليون بدعوة « يهود فرنسا » الى اللحاق به ، والعودة معه الى ارض الميعاد ، لاقامة دولتهم فيها .

كان هدف نابليون من هذه الدعوة ، هو الاستفادة من النفوذ اليهودي لدعم وضعه السياسي . ونشر في الصحيفة الفرنسية الرسمية في ٢٠ ابريل (نيسان) ١٧٩٩ اعلانا دعا

فيه اليهود الى الالتحاق بجيشه في مصـــر ، ليدخلوا معـــه القدس .

وفي ذلك الوقت ، كانت تنتشر في فرنسا دعوة ((يهودية)) الى الاستعانة بفرنسا في تنظيم التجارة بين دلتا مصر وعكا ، وبين البحر الميت وشواطـــيء البحر الاحمر ، وهـــي طرق التجارة الرئيسية بين الشرق واوروبا في ذلك الوقت . ومعنى هذا ان القضية اصلا لم تكن عودة مقدسة الى ارض موعودة ولكنها عمل تجاري ، واستعماري في المقام الاول .

ولكن الاحلام اليهودية المبكرة في الاستيلاء على فلسطين ، تبخرت في ذلك الوقت على يد المقاومة العربية ، وعلى يـــد مقاومة عكا ، التي ادت الى فشل حملـــة نابليون ، وخروج قوات الغزو من مصر . ولكن ذلك اكد منذ هذا الوقت المبكر ان « المشروع الصهيوني » بالاستيلاء على فلسطين ـــ والذي كان عندئذ في بطن الغيب ـــ سيكون حليفا لاي قوة استعمارية تطمع في الاستيلاء على هذه المنطقة .

الفصـــل الخــامس

بريطانيا تطرد محمد علي من فلسطين لتحتل مصر

١ ــ العودة الى القوقعــة

قال الوالد لابنه :

لم تستطع « الحامية العثمانية » في مصر منع الفرنسيين من احتلالها ، ورغم المحاولات التي بذلها العثمانيون لاخراج الفرنسيين من مصر ، **فان المقاومة الشعبية المصرية كان لها الدور الاول والاكبر في اجبار الاحتلال على الرحيل .**

وحينما خرجت قوات الاحتلال الفرنسي من مصر ، كانت الارادة الشعبية المصرية قد استيقظت ، وبدات تنمو بحيث تمكنت بعد وقت قصير ، وفي عام ١٨٠٥ ، من اختيار وفرض محمد علي واليا على البلاد واطاحـت في ذلـك بمعارضة السلطان العثماني ، الذي لم يملك الا الاستجابة لمطالـب المصريين .

وكان محمد علي شخصيا طموحا ، وذكيا استطاع ان يفهم طبيعة دور مصر ومكانتها في هذه المنطقة من العالم . فلمـا اراد ان يستقل بمصر عن الحكم العثماني ، توجـه بانظاره سريعا فيما شرقي مصر ورأى أن خروجه علـى العثمانيين يفرض عليه ان يسعى لسد الباب امام الخطر الذي تمثلـه حدوده مع فلسطين ، فهي الجسر البري الوحيد الذي يربط مصر من الشرق ببقية اجزاء الامبراطورية العثمانية ، وكان يعرف ان العثمانيين لن يتركوه يربح استقلال مصر الذي كان سيمثل خطرا على اجزاء اخرى عربية في دولة العثمانيين .

وادرك محمد علي ان مصر بدون فلسطين تبدو مثل مدينة مفتوحة الابواب ، ففلسطين هي بوابة مصر ، ومركز دفاعها الاول من ناحية الشرق .

وحينما تلفت محمد علي الى الشرق من مصر ، تعلقت انظاره بفلسطين ، وتركزت فيها ، فقد وجدها تكملة جغرافية وعسكرية لمصر ، وتابع محمد علي خطى جميع الحكام الذين سبقوه وحاولوا الاستقلال بمصر ، فآمن بضرورة فلسطين لاستقلال مصر .

وبناء على ذلك ، تقدم محمد علي نحو فلسطين ، لتكون بوابة مصر بيديه ، وليس في يدي اعدائه ، ونجح في هزيمة قوات السلطان العثماني في فلسطين والشام ، ووحدها تحت سيطرته مع مصر ، واصبحت هذه الدولة — في وقت قصير — قوة مؤثرة في الصراع الدولي حول هذه المنطقة . اذ كانت كل دولة اوروبية كبيرة في ذلك الوقت تطمع في وراثة الامبراطورية العثمانية في هذا الجزء او ذاك من املاكها ورأت هذه الدول في محمد علي وفي دولته الموحدة التي تضم مصر وفلسطين والشام ، خطرا على اطماعها .

ووجدت دول اوروبا الكبرى ان مصالحها تقضي عليها بوقف محمد علي عند حده ، وحرمانه من مصادر قوته ، وقوة دولته .

واستطاعت هذه الدول ان تنسق مواقفها ، وتوحدها ضد محمد علي حتى فرضت عليه الخروج من الشام وفلسطين .

ففي ١٥ يوليو (تموز) ١٨٤٠ وقعت الدولة العثمانية مع الدول الاوروبية اتفاقية لندن .

وجاء في احد ملاحق الاتفاقية ان السلطان العثماني يعد بمنح محمد علي وخلفائه من بعده حكم مصر ، ولقب باشا عكا (فلسطين) فترة حياته فقط .

وقد رفض محمد علي هذه الشروط ، لانها انتزعت منه مكاسب ، وحرمت حكمه وحرمت مصر من جناحها الشرقي في فلسطين .

واستعدت دول اوروبا للتدخل عسكريا كي تفرض على محمد علي ما اتفقت عليه ، بل وتنفيذ ما هو اقل من الشروط التي رفضها . وبالفعل سيطرت بريطانيا بقواتها على لبنان وفلسطين وحاصرت الاسكندرية ، فاضطر محمد علي الى

الاستسلام ، بعد ان تخلى عن الاحتفاظ بلقب باشا عكا (فلسطين) مدى حياته ، فقد فرض عليه الانسحاب منها ، كي يعود الى « قوقعته » في مصر ، على حد تعبير احد رجال الاستعمار في ذلك الوقت .

وكان الوجود المصري يتراجع وينسحب من فلسطين ، بينما كانت بريطانيا تفكر في احتلالها ، كما تفكر في احياء مشروع نابليون بدعوة اليهود بالهجرة اليها .

وكانت معاهدة لندن ١٨٤٠ وما صاحبها من احداث ، او الخطوط في الخريطة السياسية للمنطقة ، كما رسمتها اصابع الاستعمار ، والتي لا نزال نتحرك فوقها حتى اليوم .

٢ ـ بريطانيا تحتضن اليهود

قالد الوالد لابنه :

طاردت بريطانيا وجود مصر في سوريا وفلسطين ، حتى طردته ، ورأى الانجليز ان « سجن » مصر داخل حدودها الرسمية سيكون وسيلة لاضعافها ، من ناحية ، بحيث ينفتح الباب من ناحية اخرى ، امام الانجليز للاستيلاء على فلسطين .

ومن هنا ، كان اصرار بريطانيا على اضعاف مصر محمد علي ثم اعدادها وتهيئتها لدخول النفوذ الانجليزي ، واتخاذها ركيزة للتسرب الى المناطق العربية الاخرى .

وفي عام ١٨٤٢ ، احيى سياسي انجليزي هو « الايرل اوف شافتبري » فكرة منح وطن لليهود في فلسطين ، بدعوى انها ارض بلا شعب ، ويجب أن تعطى لشعب بلا ارض . ووضع هذا الانجليزي مشروعا حول هذه الفكرة وتقدم به الى وزارة الخارجية البريطانية . وكانت هذه الفكرة عاملا في دفع بالمرستون ، وزير خارجية بريطانيا في ذلك الحين ، الى توجيه تعليماته الى قنصل بلاده في القدس ان يضفي « الحماية الانجليزية » على اليهود فيها .

وفي رسالة بعث بها بالمرستون الى سفيره لدى الدولة العثمانية اوضح علاقة فكرة الوطن اليهودي بمحاولة اضعاف مصر ، منذ ذلك الوقت المبكر .

لقد طلب بالمرستون من سفيره ان يحادث السلطان العثماني في دعوة اليهود وتشجيعهم على العودة الى فلسطين والاستيطان فيها ، لماذا ؟ حتى يكونوا حاجزا ضد اية خطط شريرة يعدها في المستقبل محمد علي او خليفته .

وبذلك كان انهيار دولة محمد علي القوية والواسعة خطوة ضرورية من وجهة نظر الاستعمار البريطاني لادخال تغيير اساسي على معالم خريطة الشرق العربي .

كان انشاء « الدولة اليهودية » في فلسطين يرتبط بطرد الوجود المصري منها ، بل وباضعاف مصر ، وهو ما تحقق بالفعل في السنوات التالية . وكان احتلال بريطانيا لمصر في ١٨٨٢ خطوة وضعت الانجليز على حدود فلسطين ، وهيأت لهم ، فيما بعد ، الوثوب عليها ، واعدادها لتكون « وطنا قوميا لليهود » ، يقف شوكة في حلق مصر ، ويهددها باستمرار .

وكان فتح قناة السويس في ١٨٦٩ امام الملاحة الدولية ، قد زاد المطامع البريطانية في احتلال فلسطين . فقناة السويس حولت مركز فلسطين من كونها طريقا ومدخلا بريا الى مصر الى كونها ايضا شريكا مساهما في الاهمية التي اكتسبها موقع البلدين في الركن الجنوبي — الشرقي من البحر المتوسط ، بعد فتح القناة ، واصبح اي طامع في احد البلدين لا بد ان يطمع في البلد الاخر .

وفي نفس الوقت فان فتح قناة السويس اثر على العلاقات بين ابناء الشعب العربي في البلدين ، مصر وفلسطين ، فزاد التلاقي بينهم ، ونما حجم الاخذ والعطاء . وساهم بعض الفلسطينيين من ابناء غزة في انشاء مدينة « القنطرة » المصرية فوق القناة ، واصبحت هذه المدينة موقعا تجاريا بين ابناء فلسطين ومصر .

٣ — فلسطين والسويس

قال الوالد لابنه :

تزايد اهتمام بريطانيا بالمنطقة بعد فتح قناة السويس . وحدث ذلك في زمن واحد مع نمو « الحركة الصهيونية » التي قامت على

اساس عودة اليهود الى فلسطين ، بزعم انها الوطن التاريخي لهم ، **لانه قبل اكثر من الفي سنة ، قامت في فلسطين دولة يهودية لم يستمر وجودها اكثر من مائة عام !** ونادت الصهيونية اليهود الى العودة الى فلسطين ، وقد اخذت هذه الحركة شكلها الرسمي في عام ١٨٩٧ م ، حينما انعقد في مدينة بال السويسرية مؤتمر اصبح يعرف باسم المؤتمر الصهيوني الاول .

وسبقت هذا المؤتمر جهود صهيونية مختلفة . لم تكن في تحركاتها ، ومعاملاتها تجهل دور مصر بالنسبة لفلسطين .

وفي عام ١٨٧٥ ، ولم تكن الصهيونية قد تحولت الى كيان رسمي منظم ، لعبت العناصر الصهيونية دورا في مساعدة بريطانيا على شراء اسهم مصر في قناة السويس . فقد سهلت البنوك ((اليهودية)) لحكومة بريطانيا عقد هذه الصفقة ، فاقرضتها — بمجرد كتابة العقد — ثمن الاسهم وهو حوالي ٤ ملايين جنيه مصري فقط ، الى حين عقد اجتماع البرلمان البريطاني الذي كان في اجازة ليوافق على الصفقة . ودفع المبلغ بنك روتشيلد في لندن ، وهو البنك الذي تملكه عائلة روتشيلد البريطانية ، التي سيوجه لورد بلفور وزير خارجية بريطانيا في ١٩١٧ الى احد افرادها الوعد البريطاني للحركة الصهيونية بمنح اليهود وطنا قوميا في فلسطين .

ولم ينظر يهود بريطانيا الى هذه الصفقة — وهم يسهلون عقدها — على انها عملية تجارية ، بل اعتبروها صفقة سياسية في المقام الاول تساعد في تمكين الدولة التى يعتمدون عليها في مشروعهم الاستعماري من احتلال الدولة التي تمثل خطرا على هذا المشروع حين يقوم . وسيكون الاحتلال البريطاني خير مانع لهذا الخطر .

وفي ١٨٨٢ احتلت بريطانيا مصر . واصبحت تقف على حدود فلسطين ، والتي تقف — بدورها — بجوار قناة السويس . ورأت بريطانيا ان احتلال فلسطين هو افضل ضمان لوجودها في السويس ، كما رأت ان اقامة دولة للصهاينة في فلسطين تكون صديقة لها ، سيكون ضمانا مستمرا لمصالحها في المنطقة كلها .

وتبنت بريطانيا الحركة الصهيونية بشكل كامل وعلني ، ودعمتها وساعدتها على الاستيلاء على فلسطين . وكان وجود

الاحتلال البريطاني في مصر عاملا كبير الاثر في نجاح المشروع الصهيوني في الاستيلاء على فلسطين ، فبريطانيا التي احتلت مصر في ١٨٨٢ ، خرجت مـــن الحرب العالمية الاولى ، التى قامت في سنة ١٩١٤ وانتهت في ١٩١٨ ، وقد فرضت انتدابها على فلسطين ، كما فرضته على العراق . اصبحـــت مصر وفلسطين في يد بريطانيا . وكان سهلا عليها ان تنفذ خططها الاستعمارية مـــع حلفائها من الصهـــاينة ، بانتدابها علـــى فلسطين ، امنت بريطانيا وجودها في مصر . وباحتلالها لمصر ضمنت نجاح مشروعها في فلسطين .

الفصـــــل الســـادس

الصهيونيـــــة
اطماع في مصر وفلسطين

١ ـــ من سيناء الى اوغنــدا !

قال الوالد لابنـــه :

في ١٧٩٨ دعا نابليون بونابرت اليهود الى ان يتبعوه ـــ عند احتلاله لمصر ـــ الى دخول القدس ، وبعد ١٠٠ سنـــة تقريبا من هذا التاريخ اي في ١٨٩٧ انعقد المؤتمر الصهيوني الاول في مدينة بال السويسرية وقرر طلب اقامة وطن قومي او دولة لليهود في فلسطين .

وجاء انعقاد المؤتمر بعد ١٥ سنة فقط من احتلال بريطانيا لمصـــر .

معنى ذلك ان الحركة الصهيونية لم تكن نباتا شيطانيا ، لقد ولدت في اطار النظام الاستعماري الدولي وهو في أوج قوته ، وتطورت معه ، واستفادت منه .

ووضـع مؤتمر بال « برنامج الحركة الصهيونية » وهـــو بكلمة واحدة « احتلال فلسطين »وقد تطور هذا البرنامج قبل بال ، وتعدل بعدها ، ولكن الهدف ظــل ثابتا وهو احتلال فلسطين .

وفي جميع المراحل التي اجتازها البرنامج الصهيوني لم تكن مصر بعيدة عن انظار واضعي البرنامج ، ومنفذيه .

في بعض مراحل الحركة الصهيونية (وحتى اليوم) سـارت الدعوة الى «اسرائيل الكبرى من النيل الى الفرات» وهـــو الشعار المكتوب داخل الكنيست (اي البرلمان) الاسرائيلي .

واحيانا اخرى سادت الصهيونية « دعوة » الي اسرائيل الكبرى التي تضم سيناء المصرية ، واجزاء من الدلتا المصرية .

وما نراه اليوم من احتلال اسرائيل لسيناء ، ثم عبورها في حرب ١٩٧٣ الى غرب قناة السويس ، هو ترجمة حقيقية لشعارات واهداف صهيونية معروفة ، وتنفيذ عملي لمشروعات صهيونية سابقة .


وهناك مشروعان صهيونيان يبرزان اطماع الصهاينة منذ وقت مبكر في مصر ، ويؤكدان ان اطماعها لم تكن مركزة فقط على فلسطين . وقبل ان تقوم « اسرائيل » كيانا صهيونيا فوق أرض فلسطين ، تطلع الصهاينة دائما نحو مصر .

وهذان المشروعان هما مشروع تيودور هيرتزل ـ مؤسس الصهيونية ـ لاستعمار سيناء ، والمشروع الثاني هو اقامة الدولة الصهيونية في اوغندا .

والمشروعان يؤكدان أن الحركة الصهيونية حركة ذكية ، فهمت واستوعبت كل دروس الغزوات الاستعمارية التي طمعت في هذه المنطقة .

امريكا والصهاينة هم الورثة الحقيقيون في ايامنا هذه لكل الغزاة الاوروبيين الذين غزوا الوطن العربي من الرومان الى الصليبيين الى البريطانيين والفرنسيين والايطاليين .كل هذه الغزوات قديما وحديثا حرصت على اضعاف مصر ، لتضمن لنفسها الاستقرار والبقاء في المنطقة، كما عرفت ان اضعاف مصر يسهل تحقيقه عندما يتم اسقاط خط دفاعها الاول من الشرق ، اي فلسطين . وكان طبيعيا ان يعرف الصهاينة ـ قبل ان يقوم لهم كيان في فلسطين ـ انه لا حياة ولا استقرار لوجودهم فيها طالما بقيت مصر دولة قوية .

ومن هنا اصبح اضعاف مصر هدفا صهيونيا ثابتا ، ثبات مطامعهم في بعض الارض المصرية وبشكل خاص شبه جزيرة سيناء .



هرتزل

٢ ــ هيرتزل وفلسطين المصريــة

قال الوالــد لابنــه :

« فلسطين المصرية » هو الاسم الذي اطلقه هيرتزل ــ أبو الصهيونية ــ على سيناء ، التي بــذل جهــدا كبيــرا لاحتلالها ، واستيطانها ، كمقدمة لاحتلال فلسطين .

ولكن مشروع ، احتلال سيناء ، لم يظهــر عنــد الصهاينة فجأة على يد هيرتزل . انه كان يتابــع في هــذا التفكيــر خطوات زعمــاء صهاينة اخرين سبقوه ، ومنهــم موسى منتفيوري الذي كان أول رئيس يهودي لبلدية لندن .

وقد زار منتفيوري فلسطين عدة مرات . وفي احــدى رحلاتــــه الــى فلسطين في ١٨٣٩ ــ ١٨٤٠ حــاول ان أن يشتري بعض اجزاء من أرض مصر ليقيم عليها مستعمرات يهودية في سيناء الــى جانــب المستعمرات اليهودية فــي فلسطين ، واجتمع مع محمد علي ، وفاتحــه في ذلــك ، ولكن محمد علي وعده وعدا شفويا بتحقيق رغبتــه ، وابــى أن يسجل ذلــك على نفسه كتابــة .

وبعد خمسة أعوام من عقد المؤتمر الصهيوني الاول ، جاء هيرتزل يحاول احيــاء مشروع سلفــه منتفيوري ، باستيطان سيناء والعريش . وان كان هيرتزل يحدثنا فــي مذكراتــه عن تفكيره في سيناء منذ ١٨٩٦ ، اي قبــل عقــد مؤتمر بال ، ففي ذلك العام ، راودتــه فكرة أن تكون قنــاة السويس هي الحدود الجنوبية لفلسطين التي يريدها .

ومــا أن جاء عام ١٩٠٢ حتــى كان هيرتزل يبــدأ باتخاذ خطوات عملية لاحتلال سيناء ، وتوطــين اليهــود فيها وبذل مساعي كثيرة لتحقيق هذا الهدف . بــذل مساعيه لدى بريطانيا التي تحتــل مصر ، ولدى رجال الاحتــلال في القاهــرة ، يحاول اقناعهم بتأييد مشروعه والتحمس له. وقال : **((سنذهب الــى مصر ، لقد كنا فيها من قبل))** وحدد هدفــه في اقامة « مستعمرة يهودية مستقلــة في الجانــب الجنوبي من البحر المتوسط » فهذه المنطقــة في رأيــه : « يمكن أن تصبــح ملجــا ووطنا لليهــود .. اذا سمحت انجلترا لليهود باقامة مستعمرة هناك » .

ولم يكن احتلال سيناء فكرة عابرة عند هيرتزل . لقــد

كانت مشروعا متكاملا صاغه في مذكرة شاملة ، تضمنت تأسيس شركة استيطان رأسمالها خمسة ملايين جنيه وتقوم بأعمال الاستيطان ، على يد موظفين فنيين وخبراء في الزراعة يذهبون « حالا » الى سيناء ، لتهيئة الطرق والسكك الحديدية والموانىء ولدراسة الاراضي وتقسيمها .

وهجرة اليهود الى سيناء ، تنظمها ــ حسب خطة هيرتزل ــ المؤسسات الصهيونية المنتشرة في جميع انحاء العالم . ويتم التوطين حسب احدث مبادىء العلم والخبرة ، ويذهب الى سيناء يهود شرق اوروبا « الجائعون » وبعض اصحاب رؤوس الاموال لانهم سيجدون مجالات لمشروعات اعمال يستفيدون منها .

ويقول هيرتزل في مذكرته :

« هذه كلها حقائق ، انا متأكد منها ، وعندي عليها براهين . وخلال سنوات قليلة ستصبح الامبراطورية (البريطانية) اكبر بفضل مستعمرة غنية » .

واعتبر هيرتزل ان سيناء والعريش منطقة خالية من السكان . وهي نفس الفكرة التي روجها الصهاينة عن فلسطين التي ظنوها أرضا بلا شعب .

واعد مؤسس الصهيونية عدته لاحتلال سيناء ، فأرسل مبعوثا الى مصر ، ومال المندوب البريطاني في مصر ، اللورد كرومر ، الى تأييد المشروع .

وظن هيرتزل انه قريب من تحويل سيناء الى مستعمرة يهودية . فبدأ يهتم بدراسة تفاصيل مشروعه ، حتى درس كيف يروي اراضي سيناء ، وفكر في اقامة الموانىء شمال العريش ، ومد طريق من ميناء العريش الى جبال سيناء .

ومن اجل ذلك ارسل هيرتزل بعثة لاستكشاف المنطقة ودراستها والوقوف على امكانيات الاستيطان فيها . ودرست البعثة امكانية نقل المياه العذبة من النيل الى العريش وسيناء عن طريق قناة ، واقامة السدود وحفر الابار للحصول على المياه الجوفية ، كما درست امكانيات الزراعة في سيناء ، وطقسها ، وأوضاعها الصحية ، والاماكن الصالحة لاقامة المجتمعات السكانية الجديدة ، الى جانب

دراسة المـوارد الطبيعيـة ، في شبـه الجزيرة المصرية .

وكان هيرتزل مفعما أمـلا بالحصول علـى سيناء ، واستيطانها ووضع صيغة « العقد » او « الامتياز » الـذي يمتلـك بـه مـا سماه « القطاع المصري من فلسطين » ، أو « الجانـب الاخر من وادي النيـل » .

ثم جاء مؤسس الصهيونية الـى مصر ، ليدفع مشروعه خطوات اخرى الـى الامام ، واجتمع مع زعماء الاحتـلال البريطاني في مصر ، كما اجتمع مع بطرس غالـي رئيـس الـوزراء المصـري .

ورفضت الحكومة المصرية الموافقة على تزويد هيرتزل بالمـاء اللازم لاستيطان سيناء . وبذلك انهار المشـروع . وكان هـذا أول موقـف مصري ضد الصهيونيـة ، وعبـر بشكـل صحيـح عـن ادراك مصر لخطـورة المشـروع الصهيوني منذ بدايتـه .

وانهيار هذا المشروع لم يقلـل من جهود هيرتـزل لتحقيقـه ، والحصول على « فلسطين المصرية » فهـذه الجهود لم تكن في الحقيقـة اضعـف مـن جهود خلفائـه للحصول على وعد بلفور ، وفشـل هيرتزل في سنة ١٩٠٢ ونجاح خلفائه في ١٩١٧ يرجـع في الاساس الـى اختـلاف الظروف بين هذين التاريخـين .

وقد كان مؤسس الصهيونية واثقا من قدرتـه علـى احتلال فلسطين المصرية ، لدرجة انـه كان يفكـر في نقـل مقبرة عائلته اليها ، بدلا من بقائها في النمسا ، التي قـال ان والده مدفون مؤقتا .

والفشـل الذي لقيـه هيرتزل لـم يجعله ينصرف عن العودة الـى التفكير في سيناء ، مرة اخـرى ، لقد كـان يعرف اهميتها لاستقرار مشروعه في فلسطين .

وذات مرة فكر هيرتزل في قبول « موزمبيـق » لتكـون وطنا قوميا لليهود ، ثم يتاجر بموزمبيـق ويقايض بها ــ كما يقول في مذكراتـه ــ كي يأخـذ بدلا منها « سيناء مـع مياه النيـل صيفا وشتاء ، وربما قبرص ايضا ، بدون ثمن » !

والمشروع الصهيوني باحتلال سيناء لم يدفن مـع هيرتزل . لقد تابع خطواتـه صهاينة اخـرون ، وضعـوا

عيونهم على سيناء ، وخاصة على شمالها والجزء الذي يسمى « سهل العريش » **(وهي نفس المنطقة التي اقامت اسرائيل فيها حاليا حوالـــي ٢٠ مستعمرة في منطقة « مشارف رفح » وطردت البدو المصريين منها ، وتعمل على اقامة مدينة كبيـــرة فيها باسم «ياميت» لتكون ميناء اسرائيليا على البحر الابيض)**.

ومن الذين جاءوا بعد هيرتزل ، اكد زعيـــم صهيونـــي انـــه في شرق سيناء يحظـــى مجرى وادي العريش باهتمام بالغ من الحركة الصهيونية ، حيـــث يمكن بناء السدود وحفر ابار المياه في هذا الوادي وبالقرب منـــه .

وقال هذا الزعيـــم الصهيوني بلهجة لا يخفى مغزاها : ان العريش او الشريط الساحلي الضيـــق على شاطـــىء البحـــر الابيض المتوسط والذي يقـــع في البلد المجـــاور لفلسطين من ناحية الجنوب الغربي ، هو اهم منطقة بالنسبة لنـــا (نحـــن الصهاينة) . لذلك نستطيع لسنوات كثيـــرة قادمـــة ان نقتصر عليـــه جهودنا ، في المقام الاول .

٢ ـــ من شرق القناة الى جنوب مصـــر

قال الوالد لابنـــــه :

كانت مصر ـــ ولا تزال ـــ حلقة رئيسية في المشـــروع الصهيوني لاحتلال فلسطين . واذا كان الاحتلال الصليبي قد حاول ـــ كما راينا ـــ ان يغزو مصر عن طريق فلسطين ، ثم حاول في مرحلة تالية ان يغزو مصر مباشرة ، وعن طريق البحر . فان الصهاينة حاولوا ايضا منذ بداية مشروعهم ان يقتطعوا الجزء الشرقي من مصر ، كما حاولوا في نفس العام ان يأتوا الى مصر من ناحية الجنوب . والمشروع الصهيوني باقامـــة « الوطن القومي اليهودي » في اوغندا الافـــريقية يكشف ايضا عن ارتباطه بمطامع الصهاينة في مصر .

وقد احتلت بريطانيا مصر والسودان ، سعت الى ربط مستعمراتها في شرق افريقيا برباط واحد ، وفكـــرت في خط سكة حديد يربط العاصمة المصرية القاهرة بمدينة الكاب في اقصى الجزء الجنوبي من القارة الافريقية .

وفي عام ١٩٠٢ ــ الذي حاول فيه هرتزل استيطان سيناء ــ بدأت بريطانيا في اقامة خط سكة حديد يربط بين السودان واثيوبيا واوغندا ليكون جزءا من خط القاهرة ــ الكاب ، وليربط أهم الاقاليم في شرق افريقيا ، بالنسبة لبريطانيا ومطامعها الاستعمارية في القارة .

وفي العام التالي أي في ١٩٠٣ قدمت بريطانيا الى الحركة الصهيونية عرضا بأقامة « الوطن القومي اليهودي » في اوغندا ، التي كانت قد أصبحت منذ ١٨٩٠ فقط جزءا من املاك بريطانيا في الجزء الشرقي من أفريقيا . وكانت سياسة بريطانيا في هذا الجزء الافريقي تقوم على بقاء مصر ، مستعمرة بريطانية ، وكان دخول بريطانيا الى السودان في ١٨٩٩ وسيلة لتأكيد ذلك ، وكان فرض حمايتها على أوغندا في ١٩٠٢ وسيلة اخرى لتأكيد ذلك ، وكان العرض البريطاني على الحركة الصهيونية وسيلة ثالثة لتحقيق ذلك ، ولتهديد أمن مصر من الجنوب ، خاصة بعد احتلال بريطانيا للسودان .

واثار مشروع اوغندا خلافا داخل الحركة الصهيونية ، وانتهى الامر برفض الصهيونية للمشروع . ولكن الملاحظ ان الصهيونيين الذين ايدوه كانوا من العناصر المعروفة بعلاقاتها الوثيقة مع دوائر الاستعمار البريطاني .

وقد مر بنا أن هيرتزل حاول ان يقبل « موزمبيق » لتكون وطنا قوميا لليهود ، كي يقايض بها على سيناء والعريش ، ويصدق نفس الامر بالنسبة لاوغندا أيضا ، أرادها بعض الصهاينة وطنا قوميا مؤقتا ، كي يقايضوا عليه فيما بعد بسيناء والعريش !

٤ ــ الصهيونية عداء لمصر

لم يكن صدفة ان يفكر هرتزل في سيناء والعريش ، ويحاول استيطانهما بمعرفة الاستعمار البريطاني ، في وقت طرحت فيه بريطانيا على الصهيونية مشروع استيطان أوغندا .

كان يربط بين المشروعين والفكرتين خيط واحد اسمه

« موقع مصر في دائرة السياسة الاستعمارية البريطانية ، ومدى ارتباط المشروع الصهيوني بهذه السياسة .

لقد وجدت بريطانيا في الصهيونية خير وسيلة — من وجهة نظرها — لاضعاف مصر ، ولاستمرار سيطرتها الاستعمارية عليها لاطول مدى ممكن ، بل والحفاظ على هذه السيطرة اذا ما خرجت بريطانيا من مصر .

ومن جانبهم ، فان الصهاينة لم يدخروا وسعا في اللعب بهذه الورقة ، **قائلين اننا سنكون حصن الحضارة الغربية الدائم في هذه المنطقة وسنكون امتدادا لاوروبا ، وسنكون وسيلة لتوسيع الامبراطورية البريطانية وسنكون سدا امام مصر ومطامعها في البلاد التي تجاورها في الشرق .**

بأختصار ، قالت الصهيونية منذ نشأتها للدول الاستعمارية الاوروبية : نحن في خدمتكم ، سنحقق لكم أهدافكم في هذه المنطقة ، بأقل تكلفة ممكنة ، وسنكون خير وسيلة لاستنزاف مصر ، ولاجبارها على الانطواء داخل « قوقعتها » في وادي النيل .

وعند هذه النقطة المشتركة ، نقطة العداء لمصر ، تلاقت مصالح بريطانيا الاستعمارية مع مصالح الحركة الصهيونية وكان وعد بلفور هو **الابن غير الشرعي لهذا التلاقي ، فقد منح الوعد من لا يملك الى من لا يستحق .**

اذن ، لم يكن صدور وعد بلفور وزير خارجية بريطانيا في ٢ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٧ للحركة الصهيونية بأقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، الا وسيلة لتأكيد مصالح بريطانيا الاستعمارية في هذه المنطقة ، ووسيلة لتحقيق غاية جمعت بين بريطانيا والصهاينة وعبر عنها الجانبان كثيرا وهي اتخاذ فلسطين أداة لحماية مركز بريطانيا ومصالحها في مصر ، ولضمان الاتصال البري بين مصر وبقية أجزاء الشرق العربي ، التي كانت بريطانيا تتطلع الى احتلاله .

وكان صدور هذا الوعد يعبر ايضا عن رغبة الاستعمار في وضع كيان يعادي مصر على حدودها الشرقية ، كي لا تستقر مصر ، ولا تشعر بالامن وتنصرف الى بناء قوتها الذاتية ، التي تمثل خطرا كبيرا على كل غاز إجنبي ، طامع في هذه المنطقة .

وهذه هي الجذور الحقيقية للعداء الصهيوني تجاه مصر .

الفصــــــل السابع

قيــــــام اسرائيل

١ ـ الحسيني والطاهر في القاهرة

قال الوالد لابنه :
صدر وعد بلفور بمنح اليهود « حق » انشاء وطن قـومي في فلسطين ، بعد ان فرضت بريطانيا حمايتها على مصر ، عندما نشبت الحرب العالمية الاولى . فجاء صدور الوعد في وقت انشغلت خلاله مصر بمقاومة الاحتلال البريطاني .

ولم تتهيأ لمصر ، في ذلك الوقت ، قيادة تربط خطر الاحتلال البريطاني بالاخطار التي تهدد العرب عامة ، والفلسطينيين خاصة ، ولم ينظر الساسة المصريون عبر سيناء . وانصب كل عملهم على قضية وطنهم . وكان هذا أمرا طبيعيا ، ففاقد الشيء لا يمنحه الى غيره ، والشعب الذي فقد اســـتقلاله يصعب عليه ان يساعد شعبا اخر في الحصول على استقلاله أو الحفاظ عليه ، مهما كانت درجة قرابته من هذا الشعب .

وظل هذا وضع مصر لسنوات غير قليلة ، ولكن تـــزايد الخطر الصهيوني في فلسطين نبه المصريين شيئا فشيئا ، الى ان هناك خطرا يزحف على البوابة الشرقية لبلادهم . وقد تزايد الخطر الصهيوني في فلسطين في وقت بدأ ينمو فيه داخل مصر اتجاه نحو العـــروبة ، وضرورة التضـــامن بين العرب ، وستكون قضية فلسطين ذات اثر كبير في تنمية هذا الاتجاه ، وبلورته داخل مصر .

ومع ذلك ، فان مصر كانت ملجأ لعدد من العرب والفلسطينيين الذين هربوا من بلادهم بسبب ارهاب الاحتلال العثماني ، ثم الاحتلال البريطاني والفرنسي بعده .

ورحبت مصر بقدوم عدد من المناضلين الفلسطينيين المعروفين ، مثل الحاج أمين الحسيني ، وجمال الحسيني ، ومحمد علي الطاهر ، وغيرهم . ولعب وجود هؤلاء المناضلين دورا في تنبيه مصر الى ما يجري في فلسطين ، وفي دفع المصريين الى تدعيم الحركة الوطنية الفلسطينية .


في ١٩٢٣ زار مصر الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين وزعيم حركتها الوطنية ، لاول مرة وتعرف على وجوه من السياسيين المصريين ، ونجحت الزيارة في اقامة عدد من اللجان المصرية التي جمعت أموالا لمساعدة الحركة الوطنية الفلسطينية . وجمعت هذه اللجان ١٣٠٠ جنيه مصري .

وبعد ثلاثة أعوام ، زار المفتي مصر زيارة اخرى ، نبه فيها كثيرا من رجال السياسة في مصر الى الحقوق العربية في فلسطين .

وفي نضاله الوطني الطويل ، كان الحاج أمين يتطلع دائما نحو القاهرة ، التي أقام بها ، فيما بعد ، مدة طويلة ، واتخذها مركزا لجهاده .

ومن الفلسطينيين الذين أقاموا في مصر ، ولعبوا دورا في جذب المصريين نحو الاهتمام بفلسطين ، السيد محمد علي الطاهر الذي انشأ في مصر جريدتي الشورى والشباب ، وكانت كل منها لسانا معبرا عن الحركة القومية العربية ، وعن قضية فلسطين ، التي قدم عنها أصدق المعلومات في ذلك الوقت الى الراي العام المصري .

وشيئا فشيئا ، صحت مصر على رياح الخطر تهب على بوابتها الشرقية .



الحاج امين الحسيني

٢ ـ لجان الدفاع عن فلسطين

قال الوالد لابنه :

رغم كل شيء ، كان الشعب العربي في مصر من أوائل العرب الذي التفتوا الى ما يجري فوق أرض فلسطين ، واهتموا به ، وسارعوا الى دعم النضال الوطني الفلسطيني

ولم يكن قد انقضى اكثر من ١٠ سنوات على صدور وعد بلفور حتى كان وعي المصريين بالخطر الصهيوني قد وقف على قدميه . ففي عام ١٩٢٧ تأسست في مصر جمعية الشبان المسلمين ، ومنذ نشأتها أبدت اهتماما ملحوظا بقضية فلسطين .

وكان النضال الوطني الفلسطيني ضد الانتداب البريطاني وضد المهاجرين الصهاينة ، يثير اهتمام مصر ، واعجابها ، ويدفعها الى تأييده بوسائل مختلفة . وعندما وقع في فلسطين صدام بين العرب وبين الصهاينة فى سبتمبر (ايلول) ١٩٢٩ ، بسبب حائط البراق الذي يمثل الجانب الغربي من القدس الشريف (والذي يعرف عند اليهود بأسم حائط المبكى) عندئذ ، تكونت في مصر أكثر من لجنة لتأييد موقف العرب في فلسطين مثل :

* لجنة الدفاع عن فلسطين .
* لجنة اغاثة منكوبي فلسطين .
* جمعية مساعدة منكوبي فلسطين [*] .

واظهرت هذه الجمعيات اشكالا مختلفة لدعم النضال الوطني الفلسطيني ، وكان ابرزها جمع الاموال لاعانة ضحايا الاعتداءات الصهيونية بينما شاركت جمعية الشبان المسلمين فى الدفاع عن حق العرب في حائط البراق ، وبعثت بالسيد محمد علي علوبة المحامي الى فلسطين ليشارك في الدفاع أمام اللجنة التي شكلتها سنة ١٩٣٠ عصبة الامم للتحقيق في هذا الامر .

ودافع علوبة عن حق العرب في الحائط دفاعا مجيدا . وصدر حكم اللجنة بحق العرب في هذا الحائط . ومنذ ذلك العام يبرز اسم محمد علي علوبة على رأس قائمة المصريين المدافعين عن فلسطين ، وشارك في تنظيم عدة مؤتمرات عربية ودولية لمناصرة شعب فلسطين . وكان علوية من ابرز

الشخصيات العربية التي دعت الى المؤتمر الاسـلامي في القدس عام ١٩٣٠ ، لتأييد حق شعب فلسطين في الاستقلال والحرية .

ومنذ ذلك التاريخ لم يعقد مؤتمر عربي لتأييد فلسطين ، الا وشاركت فيه مصر ، وقامت بدور كبير في اعداده وتنظيمه

وقامت الثورة العربية الكبرى في فلسطين سنة ١٩٣٦ واستمرت الى سنة ١٩٣٩ ، فزادت بشكل واضح من اهتمام مصر بالقضيه الفلسطينية ، اذ كانت هده الثوره نمودجـا رائعا في الدفاع عن الاستقلال الوطني لقى تأييد المصريين ، وتعاطفهم معه .

وفي نفس الوقت نبهت الثورة الفلسطينية مصر الى تزايد الخطر الصهيوني .

وكانت هذه الثورة هي البداية الفعلية لصحوة مصر على الخطر الصهيوني في فلسطين وعلى وحدة موقف الاستعمار البريطاني في البلدين ، حيث سارعت قوات الاحتلال في مصر على الذهاب الى فلسطين لمكافحة الثوار الفلسطينيين ، ووقف حركتهم .

ولا يخفى على احد ان بريطانيا عقدت معاهدة ١٩٣٦ مع مصر في نفس العام الذي قامت فيـه الثورة العربية الكبرى في فلسطين !



محمد علي علوبه

٣ ــ مصر ترفض تقسيم فلسطين

قال الوالد لابنه :

في عام ١٩٣٧ أصدرت لجنة [illegible]انية تقريرا حمل اسم « تقرير بيل » رئيس اللجنة ، أوصى التقرير بتقسيم فلسطين الى ثلاثة اقسام :

ــ دولة عربية تضم الاجزاء التي تعيش فيها أكثرية كبيرة من السكان العرب .

ــ دولة يهودية تضم الاجزاء التي تعيش فيها اكثرية كبيرة من اليهود .

ــ منطقة ثالثة تضم المناطق الدينية ، تبقى تحت الانتداب البريطاني .

رفضت الحركة الوطنية الفلسطينية مبدأ التقسيم ، واصرت على طلب الاستقلال .

ولكن موافقة الحكومة البريطانية على اقتراح التقسيم ، ايقظ مصر على ان الخطر أصبح على حدودها الشرقية ، وبدأت مصر تتنبه ، وتحدث عدد من المصريين عن مطامع الصهيونية في سيناء .

وعبرت مصر الرسمية والشعبية عن قلقها من فكرة تقسيم فلسطين وقيام كيان صهيوني .

وقال الزعيم المصري العظيم مصطفى النحاس ــ قائد اكبر حزب مصري شعبية واقواها في ذلك الوقت هو حزب الوفد ــ قال للسفير البريطاني في القاهرة : انه لا يستطيع الشعور بالاطمئنان وهو يفكر في قيام دولة « يهودية » على حدود مصر .

واعرب النحاس للسفير البريطاني عن عدم رضائه عن مشروع تقسيم فلسطين .

لم يكن الامر يتعلق بفلسطين وحدها ، بل كان يضع قضية مصر في اطار جديد ، ويحدد مستقبلها ، على حد تعبير احمد حسين زعيم حزب مصر الفتاة ، في حديث له عن تقسيم فلسطين ، وقتذاك .

وفي ١٨ سبتمبر (أيلول) ١٩٣٧ وقفت مصر في الجمعية العامة لعصبة الامم (وهي المنظمة الدولية التي كانت قائمة

في ذلك الحين) تعبر عن معارضتها لتقسيم فلسطين . وقال واصف بطرس غالي وزير الخارجية المصري ان قرار التقسيم يتعارض مع نصوص قرار الانتداب الذي أصدرته عصبة الامم .

وقالت مصر أيضا ان علاج المشكلة الفلسطينية في ضوء الصهيونية لن يسهل العلاقات بين العرب واليهود ، بل سيعقدها .

وكان هذا ثاني رفض رسمي مصري للصهيونية ، بعد ان رفضت الحكومة المصرية في ١٩٠٢ مشروع هيرتزل باستيطان سيناء والعريش .

وعلى المستوى الشعبي ، كان الرفض المصري لفكرة تقسيم فلسطين ، يأخذ اشكالا متعددة ، فعقدت الجمعيات والروابط المصرية اجتماعات أعلنت فيها معارضتها ورفضها للتقسيم . وأعرب قادة الاحزاب عن هذا الرفض .

ودعت السيدة **هدى شعراوي** زعيمة الحركة النسائية المصرية الى عقد المؤتمر النسائي العربي الاول ، ليكون وسيلة احتجاج على تقرير لجنة بيل بتقسيم فلسطين .

وحملت الصحف المصرية لواء الدعوة الى مقاومة المشروع والتحذير من خطورته على مصر . فقالت ان قيام دولة غربية على حدود مصر الشرقية يمثل خطرا على الاقتصاد المصري ، وقالت ايضا ـ منذ ذلك الوقت ـ ان ما يحدث لفلسطين ، سيهدد مركز مصر الثقافي وأمنها القومي وحذرت صحافة مصر من ان سياسة التقسيم ستحول مصر كلها الى وطن قومي لليهود في فلسطين .

وفي دفاعها عن فلسطين ، وربط ذلك بالدفاع عن مصر ، وفي رفضها لمشروع تقسيم فلسطين لانه خطر على مصر ، استخدمت الصحف المصرية في عام ١٩٣٧ نفس الالفاظ والتعبيرات التي نستخدمها اليوم في الحديث عن « العدو » الصهيوني ، وخطره وتهديده لامن مصر وقال صحفي مصري ان « القضية الوطنية في فلسطين قضية مصرية » وكان هذا عنوان مقال كتبه في صحيفة « السياسة الاسبوعية » الاستاذ حافظ محمود في ٢٤ يوليو (تموز) ١٩٣٧ اي قبل أكثر من ٤٠ عاما ، رغم ان هذه الصحيفة والحزب الذي كانت تنطق بأسمه هو حزب الاحرار الدستوريين كانت



النحاس

معرونة من قبل بتساهلها ازاء الصهيونية !

وقال حافظ محمود في مقاله ان هذه القضية تهم مصر قبل ان تهم اهل فلسطين !

وكان هذا تعبيرا صحيحا عن حقيقة الامور ، وكان تعبيرا وافيا عن مدى ادراك مصر للخطر الصهيوني في فلسطين .

وكانت سنوات الحرب العالمية الثانية فترة ركود في الحركة الوطنية الفلسطينية ، بينما استغلت الصهيونية هذه السنوات في تعزيز مواقعها في فلسطين ، ونقلت ولاءها من بريطانيا الى السيد الجديد الذي — توقعت انه ستكون له السيادة فيما بعد الحرب — وهو امريكا التي بدات منذ سنوات ما قبل الحرب تتطلع الى الوطن العربي .

وخلال الحرب العالمية الثانية ، قامت جامعة الدول العربية واصبحت منبرا امام مصر لتأييد فلسطين . وكان انتهاء الحرب يحمل في طياته اخطارا جديدة على فلسطين . وتعددت مظاهر المعارضة المصرية للعمل الصهيوني . واصبحت القاهرة مركزا للمؤتمرات العربية الشعبية والرسمية التي تؤيد نضال شعب فلسطين .

ومنذ عام ١٩٤٥ ، اصبحت مصر تخرج في الثاني من نوفمبر (تشرين الثاني) كل عام احتجاجا على صدور وعد بلفور .

وقام الازهر — احدى قلاع المقاومة الشعبية المصرية — بدور هام في تعبئة الشارع المصري لتأييد فلسطين . وقامت اكثر الاحزاب المصرية بدور في ذلك . وبرز من بينها بشكل خاص « جماعة الاخوان المسلمين » و « حزب مصر الفتاة » فاسسا عددا من اللجان الشعبية لتأييد نضال الشعب الفلسطيني ، وقاما بجمع الاموال وشراء السلاح وارسال المتطوعين والمدربين العسكريين الى هناك ، لتدريب الشباب الفلسطيني على استخدام السلاح .

وفي ٢٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٧ ، اصدرت الجمعية العامة للامم المتحدة قرارها بتقسيم فلسطين ، فتحرك الشارع المصري ضد هذا القرار ، فقد رأت مصر ان الخطر بدا يدخل حيز التنفيذ .

واصبحت القاهرة المركز العربي للعمل المشترك من اجل تأييد شعب فلسطين ، ومعارضة المشروع الصهيوني .

وفي مصر ، انشأت « الهيئة العربية العليا » التي كانت تقود عرب فلسطين ، عدة مراكز لها ، وكان تمويل مصر للهيئة اكبر نصيب تدفعه دولة عربية بعد سوريا . فقد رأت مصر أن خطر قيام « دولة صهيونية » يهددها اكثر مما يهدد اي دولة عربية اخرى .

ووقفت مصر كلها ترفض مشروع التقسيم . وتولت عدة لجان شعبية قيادة هذا العمل ، مثل « هيئة وادي النيل العليا لانقاذ فلسطين » . أما جمعية « الاتحاد العربي » فقد استطاعت جمع ٣٥٠ الف جنيه مصري لاعانة عرب فلسطين وتزويدهم بالسلاح .

وارسلت جماعة الاخوان المسلمين ، وحزب مصر الفتاة بالمتطوعين الى فلسطين . بل ان الحزب الاخير احضر بعض الجنود من أوروبا ، ودفع نفقاتهم للقتال في فلسطين . وقد ارتوت أرض فلسطين من دماء الاخوان المسلمين اكثر مما ارتوت من اي حزب عربي اخر ، مصري أو غير مصري » .

واصبحت مصر مهيأة لان تحارب في فلسطين ، لتدافع عن نفسها هناك . ولم يكن هذا تعبيرا عن عاطفة قومية أو دينية فقط ، بل كان تعبيرا عن ادراك مصر لخطورة قيام كيان معاد في بوابتها الشرقية ، لانه سيهدد وجودها ، ومصالحها .


واصبحت مصر واثقة من ان اي عبء تتحمله لن يكون في سبيل فلسطين فقط ، وانما سيكون « ضريبة دفاع » عن مصر ذاتها .

كان الشارع المصري مستعدا لقبول قرار الحرب في فلسطين . وكان ينتظره . وانتهز الملك فاروق هذه الفرصة ، فحاول التقرب من فيض الجماهير المصرية ، فأصدر قراره بارسال الجيش الى فلسطين ، وكأنه يستجيب لنداء الشعب ، ولكن القرار كان في حقيقته يحاول قطع الطريق على نمو الحركة الشعبية المصرية ، كما جاء مخالفا لما اتفقت عليه الدول الاعضاء في الجامعة العربية في اجتماع لها بلبنان في اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٤٧ .

وكان قرار فاروق محاولة ايضا لاسترضاء الجيش المصري ، الذي بادر بعض ضباطه بالتطوع في صفوف المقاتلين فسعى الى امتصاص الشعور الوطني داخل قيادات



فاروق



جمال عبد الناصر

الجيش ، بابعادها عن مصر ، وحتى يظهر هو بمظهر الملك الوطني .
ورغم ان قرار الحرب كان يستجيب لنداء الشارع المصري الا انه دفع بجيش مصر في معركة لم يكن مستعدا لها . وكان‌ذلك احد اسباب هزيمة الجيش المصري في حرب ١٩٤٨ .
وكان للهزيمة اثار سلبية داخل مصر ، وفي صفوف المقاتلين ، ولكن ذهاب مصر الى القتال في ارض عربية لاول مرة منذ عهد محمد علي ، جعل قضية فلسطين جزءا من قضية مصر ، قضية استقلالها ، وجلاء الاحتلال البريطاني . وفي هذه المعركة لمست مصر فعلا حقيقة الخطر الصهيوني ، حينما عبرت بعض القوات الصهيونية حدود مصر ، وداست بأقدامها ارض سيناء .
وبذلك ادركت مصر بشكل عملي ، انها تقاتل في فلسطين عدوا لها . لا تقدر على الفرار من مواجهته ، ولا تستطيع ان تغمض عينيها عن اخطاره .
واصبحت قضية فلسطين بندا جديدا للخلاف بين مصر وبريطانيا ، بجانب بندي الجلاء والسودان .
وفي ١٩٥٠ ، رفض وفد المفاوضات المصري مع بريطانيا ، الاقتراح البريطاني بعقد اتفاقية سلام مع اسرائيل واكتفى بالموافقة على مبدا عقد هدنة دائمة معها ، وتمسكت مصر بعدم مرور السفن الاسرائيلية في قناة السويس .
ومن جانب اخر ، قامت الهزيمة في فلسطين بدور مساعد كبير في تفجير الثورة على الاوضاع الفاسدة في مصر ، في ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٥٢ .
وبقيام ثورة يوليو (تموز) دخلت المواجهة المصرية ضد اسرائيل مرحلة جديدة .
وفي سنوات الثورة الاولى ، حدثت محاولة او اخرى ، لجر مصر الى عقد تسوية مع اسرائيل . وفي احدى المحاولات لاجراء المصالحة ، طالب زعيم الثورة المصرية جمال عبد الناصر ، بالحصول على ممر في النقب يربط مصر بالاردن ، وبدول المشرق العربي الاخرى .
فقد كان عبد الناصر يدرك جيدا الخطر الكامن في وجود اسرائيل كحاجز يفصل مصر عن الوطن العربي ، ويقطع الاتصال الجغرافي والترابط الارضي بين دول

المنطقــــة .

ورفضت اسرائيــل ذلك ، لانه يفقدها وظيفة هامــــة من الوظائف التي قامت لادائها ، ولانه يمكن العرب مــــن فرض « طوق » من الحصار حولها .

وزاد هذا من ادراك مصر لمدى الخطــر الاسرائيلـــي علــى دورها في المنطقــة .

الفصل الثامن

فصل اخر

١ ــ اخطر منطقة في قلب المشرق العربي

قال الوالد لابنه :

ان المطلب الذي عرضه الرئيس عبد الناصر في عام ١٩٥٤ بالحصول على ممر في النقب يربط بين مصر وبين المشرق العربي ، لم يكن نوعا من المساومة السياسية .


ولم يكن رفض اسرائيل لهذا المطلب المصري يعبر عن قدر من الغباء السياسي .

لقد كان لكل جانب مبرراته ، واهدافه التي دعته الى اتخاذ الموقف الذي اتخذه .

ان منطقة النقب مع سيناء هي « اخطر » المناطق الهامة في قلب المشرق العربي . وليس صدفة ، ان الصهاينة سعوا ــ قبل قيام دولتهم الى ان يكون النقب جزءا من كيان هذه الدولة . وقد قتلوا الوسيط الدولي الكونت برنادوت لانه قدم اقتراحا بأن يكون النقب من نصيب العرب ، وليس جزءا من الكيان الصهيوني .

وذلك كله يجعلنا نفهم حديث الاسرائيليين واصرارهم على أهمية النقب وضرورة تعميره ، واستيطانه ، لما له من اثر على مستقبل دولتهم .

والنقب وسيناء جزء من وحدة جغرافية عربية أوسع ، تمتد شرقا الى شبه الجزيرة العربية ، وتمتد غربا الى



برنادوت

اقليـــم الشرقيـــة في مصر ، وسيناء عبارة عن « قنطرة » النيـل الـى الاردن والفـرات .

وهذه الاجزاء العربية جميعا تدخـل في دائرة المطامع الصهيونيـــة المعلنة منذ عشرات السنين .

وهذه « الوحدة الجغرافية » كانت عبر القرون الماضية هدفا ثابتا لكـل الغزاة الطامعين في فرض سيادتهم علـــى المشرق العربـي .

وفي العصر الحديث ، كانت هـذه الوحـدة الجغرافية وراء حرص بريطانيا على ان تخرج من الحرب العالمية الاولى وهي تحتل فلسطين والاردن والعراق بالاضافة الى مصر ، وضمنـت بذلـك سيطرتها على الممر البـري من البحـر المتوسط الـى الخليـج العربي ، وفيما بين شرق البحـر المتوسط والبحر الاحمـر الى المحيط الهندي .

وجاءت اسرائيـل منذ لحظـة قيامها في عام ١٩٤٨ ، تحاول ان تمتلك هذا « الميراث » الاستعماري .

وفي ضوء هذه « الحقائق » أدركـت مصر مـا الـذي يعنيـــه قيام اسرائيـل في البقعـة التي قامت بها من خطر علـى مصر نفسها ، يهدد امنها ، ويضعف دورها في المنطقة وينال من هيبتها ، ولن يتردد في الطمع بارضها .

وتاريخ مصر العسكري منذ القديـم يتلخص فـي ان مصر اذا كانـت قوية فانها تسيطـر او تتحالف وتتآخى مـع من يسيطر على فلسطين ، اما مصر « الضعيفة » فانها تخضع غالبا لمن تكون فلسطين في يده ، وفي فلسطين تكمن قوة مصر، وفي فلسطين يكمن ضعـف مصـر .

وبقيام اسرائيـل ، اصبـح الخطر على مصر مجسما ، لان اسرائيل لم تخف مطامعها في الارض المصريـة ، فقـد زعم الصهاينة ان بعض اقاليم مصر جزء مـن ارض الابـاء والاجـداد .

وحال قيامها بدأت اسرائيـل تعلن مطامعها ، فاثنـاء مباحثات الهدنة بيـن مصر واسرائيـل في ١٩٤٩ ، اصـرت اسرائيـل على أن تكون منطقة العوجـة في سيناء منطقـة منزوعة السلاح . وحصلت اسرائيـل على ذلك . وقامـت فيما بعد باحتلال المنطقة ، بسبب اهمية العوجة بالنسبـة لفلسطين وسيناء . فالعوجة هي مفتاح فلسطين ومفتـاح

سيناء في نفس الوقت .
في العوجة تتلاقى الطرق المصرية من شمال سيناء، ومن سهل غزة الذي كان يعرف قديما بوادي مصر ، مع الطريق القادم من القدس والخليل وبير سبع . ثم تتفرع الى ابو عجيله ، والى مدينة الاسماعيلية ، فتكون ابو عجيله هي مفتاح الطريق الى الاسماعيلية غربا ، والى العريش شرقا .
والى الجنوب الغربي من العوجة تقع « القسيمة » التي تعتبر مركز الدفاع عن أبو عجيلة . كما تسيطر القسيمة على طريق سيناء الاوسط نحو الاسماعيلية ، وعلى الطريق الذي يذهب الى منطقة تعرف باسم « نقب العقبة » .
وبذلك يتحدد في هذه المنطقة مثلث هام : تقع راسه في القسيمة ، وتمتد قاعدته بين رفح والعريش ، وتترابط أضلاع المثلث بخطوط وطرق صحراوية معروفة هنا ، وفي هذا المثلث ، يوجد خط الدفاع الاول عن مصر (*)
وفي مقابله ، وبجواره يقع خط الهجوم على مصر .
انها بوابة مصر ، بحق ، فرضتها طبيعة الاوضاع الجغرافية واكدتها وقائع التاريخ .
وقد استوعب العدو الاسرائيلي ذلك جيدا ، وطبقه مرتين خلال عشر سنوات تقريبا ، في ١٩٥٦ ثم في ١٩٦٧. ووضع مصر أمام رياح الخطر تهب من الشرق .

٢ ــ رياح الخطر تهب

قال الوالد لابنه :

نتيجة لحرب ١٩٤٨ ، أصبح « قطاع غزة » الفلسطيني تحت الادارة المصرية . وكان القطاع يمثل شوكة مسنونة في جنب اسرائيل .
ومنذ مطلع عام ١٩٥٥ ، بدأت اسرائيل تشن غاراتها الوحشية على القطاع ، وعلى المناطق المصرية التي تجاوره، في الكونتيلا ، وخان يونس ، ورفح ، والعوجه (*)

وبدأت أولى هذه الغارات واعنفها في ٢٨ فبراير (شباط) ١٩٥٥ على قطاع غزة . وجاءت هـذه الغـارة بعـد فشل المحاولات التي جرت لعقد تسوية بين مصر واسرائيل ، وبعد ان عقدت مصر مع بريطانيا اتفاقية « الجلاء » وبدأت مصـر تسعـى الـى تعزيز سياستها المستقلة .

واستهدفت هذه الغارة تأديب مصر ، وتخويفها ، ولكنها جاءت نقطـة تحول في سياسة مصر ، التي استشعرت اكثر من اي وقت مضـى خطورة اسرائيل عليها ، من الناحيـة العسكرية . وتصادف ذلك مـع امتناع دول ـ الغرب عـن تزويد مصر بالسلاح ، فبحثت عن مصادر بديلة لتقوية نفسها ، ولمواجهـة العدو الذي يهددها .

وفي الوقت نفسه ادركت القيادة المصرية أن هذا الخطر الاسرائيلي يحتاج لمقاومته الـى عمل عربي مشترك .

واخذت مصر بقيادة عبد الناصر تدعو الـى ذلـك وتطبقه . فعقدت صفقـة لاستيراد السلاح من الاتحـاد السوفياتي . وعارضت قيام الاحلاف الاجنبية في الوطـن العربي مؤكدة ان الدفاع عن الوطن العربي ينبـع من داخله . كمـا دعـت الـى « الحياد » بين المعسكرين الراسمالـي بقيادة امريكا والاشتراكي بقيادة الاتحاد السوفياتي .

ورأت اسرائيـل أن هذه السياسة المصرية تمثـل خطرا عليها ، وبدأت تستعد منذ اواخر ١٩٥٥ لعدوان كبير ضـد مصـر .

وفي ٢٦ يوليو (تموز) ١٩٥٦ ، قرر الرئيس عبـد الناصر تأميـم شركة قناة السويس . واغضـب هـذا القرار دول الغرب : امريكا وبريطانيا وفرنسا . واستعـد الانجليز والفرنسيون لغزو مصر . وانتهزت اسرائيل الفرصة لتقوم بدورها في الدفاع عن المصالح الاستعمارية في المنطقـة ولتحقق اهدافها الخاصة ، في توسيع مساحة الارض العربية التي تغتصبها .

وتم تدبير العدوان بين الـدول الثلاث بريطانيا وفرنسا واسرائيـل في محادثات سرية حددت دور اسرائيـل في شن هجوم على الجيش المصري في سيناء ، يتخـذ وسيلة لتدخل قوات فرنسا وبريطانيـا .

وفي ٢٩ اكتوبر « تشرين الاول » ١٩٥٦ بـدأ الغزو

الاسرائيلي الاول للاراضي المصرية . وزعم قادة اسرائيل على لسان بن جوريون رئيس الوزراء انهم لا يهاجمون مصر ، ولا حتى يحاولون الهجوم عليها ، ولكنهم يحررون ارض الاباء الغربية ، ويجددون صلة الوطن (اي اسرائيل)بجبل سيناء .

وحددت اسرائيل اهدافها في هذا العدوان وهي :

اولا : القضاء على قوات العدو ، اي قوات مصر .

ثانيا : « تحرير » الاراضي التي لا تزال تحت احتلال الاعداء .

ثالثا : ضمان حرية المرور في خليج العقبة وقناة السويس .

ومعنى هذا ، كما هو واضح منذ ١٩٥٦ ، ان اسرائيل تعتبر سيناء المصرية جزءا من اراضيها يقع في يد العدو المصري ، ويحق لها تحريره !

ولكن اسرائيل اضطرت الى الانسحاب في بداية ١٩٥٧ من غزة وسيناء ، بعد ان حصلت على بعض المكاسب وهي : المرور في خليج العقبة ، ووجود قوات دولية في غزة وفي شرم الشيخ المصرية .

خرجت اسرائيل في ١٩٥٧ مجبرة من الاراضي الفلسطينية والمصرية التي احتلتها في ١٩٥٦ ، ولم تكن راضية بالمكاسب التي حققتها . واعتبرتها فقط بداية لعمل عسكري جديد تستطيع به احتلال سيناء مرة اخرى ، بحيث يستحيل على مصر ان تهاجم اسرائيل ، بل يكون احتلال سيناء وسيلة لاضعاف مصر ، وجعلها دائما عرضة لخطر الهجوم وهذه هي الخطة التي وضعتها قيادة الجيش الاسرائيلي في ١٩٥٦ — ١٩٥٧ ، وجاءت تطبقها في ١٩٦٧ ، ونجحت في ذلك .

وكان عدوان الخامس من يونيو (حزيران) ١٩٦٧ ولا يزال اكبر برهان على مدى الخطر الذي تمثله اسرائيل بالنسبة لمصر .

ومنذ ذلك التاريخ ، تعددت تصريحات وبيانات اسرائيل عن اهدافها في سيناء المصرية .

ومضت اسرائيل تبني مستعمراتها في سيناء ، التي تبلغ اليوم اكثر من ٢٠ ٥ برة ، وتستغل ثرواتها ،

وتنهب مواردها ، وتطرد سكانها ، وتهدد مصر بالخطــر . كما حدث في حرب اكتوبر (تشريــن الاول) ١٩٧٣ حينمــا تمكنت قوات اسرائيل مــن التسرب الى غرب قناة السويس تحاول ان تتقدم نحو القاهرة !

وهذا يؤكد ان حاضر مصر ومستقبلها في خطــر ، طالما بقيــت اسرائيــل في فلسطين بقيت اسرائيــل صهيونية .

كمــا يؤكد انه لا امــن ولا استقرار لمصر ، الا بتحرير فلسطين ، من الاحتلال الصهيوني ، لتكون وطنــا عربيــا ديمقراطيا ، يتساوى جميــع سكانها في الحقوق والواجبات، سواء كانوا يهودا او مسيحيين او مسلمين .

تلك رسالة مصر ، وهذا دورها بالنسبة لقضيةفلسطين التي تهم المصريين اكثر مما تهم ابناء اي قطــر عربي اخر. وهي رسالة تفرضها مصالح مصر قبــل اي عوامل اخرى.. تفرضها حقائق التاريخ ، وطبيعة موقع مصــر التي تعتبر فلسطين بوابتها الشرقية ، وجــدار حمايتهــا ، وحصــن دفاعهــا .

القاهرة ١٩٧٨/٩/٨



هـــذا الكتاب

قد يختلف الناس على ما يفعلون ، ولكن الناس لا
حول تاريخهم والتاريخ كنز ودليل . كنز يحمل تراثنا
وماضينا ، ودليل نهتدي به في حاضرنا ومستقبلنا .
وبين مصر وفلسطين تاريخ طويل مشترك لم
ولا يمكن ان تؤثر فيه كل محاولات الفصل بينهما
جهة جاءت . وستظل فلسطين هي بوابة مصر
وستظل مصر هي قلعة العرب اجمعين .